من معارك الاستشراق ضد المصحف الشريف

ترجمة جاك بيرك للقرآن الكريم بين المادحين والقادحين

د. إبراهيم عوض

مكتبة زهراء الشرق
١١٦ محمد فريد - القاهرة

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م

ترجمة چاك بيرك للقرآن الكريم

بين المادحين والقادحين

د. إبراهيم عوض

مكتبة زهراء الشرق

١١٦ محمد فريد ـ القاهرة

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م

ترجمة چاك بيرك للقرآن الكريم

بين المادحين والقادحين

بسم الله الرحمن الرحيم

رقم الإيداع ٢٠٠٠/٧٩٣٠
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-314-087-3

بين يدَىِ الدراسة

تدور هذه الدراسة حول ترجمة جاك بيرك للقرآن الكريم وما فيها من محاسن ومآخذ مقارنةً بغيرها من الترجمات الفرنسية المشابهة كترجمة سافارى ومونتيه وبلاشير ومحمد حميد الله وبوبكر حمزة وصلاح الدين كشريد . كما تتطرق إلى الصخب الذى أحدثته تلك الترجمة عند صدورها منذ عدة أعوام وكيف انقسم حيالها المثقفون المصريون المعنيّون بهذا الجانب من نشاط المستشرقين : فكان هناك من استقبلها مادحا مشيدا بها وبعبقرية صاحبها وتفرّد عمله ، كما كان هناك من عابها وبيّن ما فيها من أخطاء ومزاعم تمسّ القرآن المجيد والنبى محمدا عليه الصلاة والسلام .

وكان على رأس الفريق الأول الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى، أما الفريق الثانى فلعل أظهر من نطق باسمه الدكتورة زينب عبد العزيز أستاذة الأدب الفرنسى بجامعة المنوفية التى وضعت دراسة مفصّلة ذكرت فيها طائفة غير قليلة من الغلطات التى وقع فيها بيرك والشبهات التى أثارها حول القرآن والرسول عليه السلام .

والملاحظ أن الذين دافعوا عن الترجمة لم يحاولوا أن يدلّلوا على صحة ما يقولون مكتفين بالعبارات الإنشائية العامة دون أن يشركوا معهم القارئ فى قراءة الترجمة نفسها كما فعلت الأستاذة

المذكورة، فضلا عن أن الأستاذ حجازى (بوصفه رئيس تحرير مجلة « إبداع » القاهرية التى أخذت جانب المستشرق الفرنسى على طول الخط) قد رفض نشر مقال تنتقد فيه صاحبتُه الترجمةَ المشار إليها وصاحبها . وقد خمنت أنها د. زينب عبد العزيز ، إذ إن الإشارات والتلميحات التى وردت فى مقال الأستاذ حجازى فى المجلة المذكورة لتنطبق على الأستاذة الدكتورة انطباقا قويا . كذلك فقد سدَّد الشاعر المصرى عدة اتهامات خطيرة تمسّ ضمير كاتبة المقال وتقدح فى نياتها ، لكن دون أن يشفع شيئا من هذه التُّهَم بأى برهان .

وهذا الموقف من جانب الأستاذ حجازى يناقض تمام المناقضة صراخه المستمر فى الدفاع عن حرية الفكر وهجومه العارم على ما يسميه بـ « فقه المصادرة » .

ترجمة چاك بيرك للقرآن الكريم بين المادحين والقادحين

صدرت ترجمة المستشرق الفرنسى چاك بيرك للقرآن الكريم سنة ١٩٩٠م فأثارت ضجة واسعة النطاق بسبب الاختلاف الحاد حولها وحول ما ألحقه بها من دراسة عن هذا الكتاب المجيد ، ثم تجددت الضجة بعد ذلك بسنوات ثلاث حينما أعاد إصدار الدراسة المذكورة فى كتاب مستقل بنفس العنوان تقريبا مع بعض الاختلافات التى لا تقدم ولا تؤخر كثيرا : فمن ناحية كان هناك المادحون الذين أكدوا أن هذه الترجمة إنجاز علمى متميز عن الترجمات الفرنسية السابقة بأشياء لم يستطع أحد قبل بيرك أن يأتى بها : فمثلاً يقول عنها محمد سنكير (وهو كاتب جزائرى يقيم فى فرنسا) إنها « تتميز ... قبل كل شىء بسهولة قراءتها وفهمها ، فهى ليست ترجمة إلى اللغة الفرنسية بل هى ، لو أجزنا قبول هذا التعبير ، القرآن الكريم باللغة الفرنسية . وهى ليست خدمة تؤدّى إلى اللغة الفرنسية بل هى هدية مهداة إلى المسلمين وإلى المثقفين الذين يعجزون عن قراءة النص العربى بلغته الأصلية والذين يتمكنون بفضل ترجمة بيرك من التعرف على جمال الأسلوب وعمق التفسيرات وجمال الموسيقى الداخلية للألفاظ فى القرآن الكريم ... وعلى ذلك فإنه يجب علينا أن نحيّى هذه الترجمة التى قد تكون الأولى من نوعها التى تفتح باب النقاش فيما يتعلق بدور الإسلام فى العالم وكذلك وجهة نظر الغرب

فى القرآن الكريم والعقيدة الإسلامية »[١] .

كما يؤكد المستشرق الفرنسي پيير برنارد أن «بيرك قدّم لنا معانى القرآن الكريم باللغة الفرنسية بطريقة مذهلة فى عظمتها ، فقد نقل إلينا قوة ووضوح الآيات بالإضافة إلى الجانب الشعرى الموجود فيها»[٢] .

كذلك فإن د. وائل غالى (الذى ترجم الدراسة الملحقة بالترجمة فى مجلة « القاهرة » (العدد ١٥٤ / سبتمبر ١٩٩٥م / ٥ ـ ٣٨) إلى لساننا العربى ثم أعاد نشرها بعد ذلك فى كتاب مستقل بعنوان « إعادة قراءة القرآن »[٣]) يصف هذه الترجمة بأنها « ليست ترجمة حرفية ، وإنما هى ترجمة دقيقة قامت على علوم اللغة وعلوم التفسير » ، وبأن قيمتها تكمن فى « أنها تمزج بين الفقه الإسلامى والفكر الفلسفى واللغوى المعاصر»[٤] . كما

---

(١) محمد سنكير / جاك بيرك والإستلام المستنير / مجلة « القاهرة » / العدد ١٢٩ / أغسطس ١٩٩٣م / ١٦ ، ١٨ . والمقال مترجم عن « لوموند ديپلوماتيك » .

(٢) پيير برنارد / الأمل الذى تحقق / مجلة « القاهرة » / العدد السابق/ ١٩ .

(٣) مع مقدمة للدكتور أحمد صبحى منصور عنوانها « قراءة لقراءة خاطئة» .

(٤) چاك بيرك / إعادة قراءة القرآن / مقدمة د. وائل غالى / دار النديم / ١٩٩٦م / ١٢ ، وإن لم ينكر أن فيها بعض الأخطاء .

ذكر أيضا أن بيرك قد رتّب المصحف حسب تواريخ نزول السُّوَر استجابةً لدعوة علي بن أبى طالب كرم الله وجهه(٥) . وهو كلام غير صحيح ، إذ إن المستشرق الفرنسى قد حافظ فى ترجمته على ذات الترتيب الموجود فى مصحف عثمان رضى الله عنه . ولا أدرى من أين جاء وائل غالى بهذه الدعوى !(٦)

وممن أثنوا على ترجمة بيرك أيضا ثناءً شديدا د. محمود العزب ، الذى أكد أن هذا المستعرب « قد بذل جهدا كبيرا ومخلصا وأخرج

(٥) المرجع السابق / ١٤ .

(٦) جدير بالذكر أن ترجمة د. وائل غالى لدراسة بيرك تعانى من الركاكة الفظيعة والغموض المذهل للعقل ، وذلك بسبب الحرفية القاتلة فى نقل النص إلى العربية فى كثير من الأحيان وسوء الفهم فى كثير من الأحيان الأخرى ، مع ضعف الصياغة العربية فى كل الأحيان ، وذلك على عكس الترجمة التى قام بها مجمع البحوث الإسلامية وصدرت مع رد د. محمد رجب البيومى على بيرك فى سلسلة « كتاب الهلال » (العدد ٥٨٨ / ديسمبر ١٩٩٩م) تحت عنوان « إعادة قراءة القرآن ـ الدكتور محمد رجب البيومى يرد على چاك بيرك» ، فهى ترجمة صحيحة ومشرقة وسلسلة إلى حد بعيد . ومع ذلك يقول د. البيومى فى المقارنة بين الترجمتين إنه قد وجد فيهما « التوافق فى المعانى واضحا حتى يكاد يكون تاما إلا ما لا بد منه من اختلاف بعض الصيغ الأسلوبية نظرا لوجود الترادف فى اللغة العربية على نحو مستفيض » (المرجع السابق / ١٨ـ ١٩) ، وهو حكم أبعد ما يكون عن حقيقة الأمر .

ترجمة فى ثوب بلاغى شاعرى أنيق حاول فيه أن يحافظ على بلاغة القرآن ودقته وجمال أسلوبه ويدل على تذوقه العالى لهذه الدقة وذلك الجمال »(٧) .

كما كتب أحمد عبد المعطى حجازى عدة مقالات فى « الأهرام » المصرية يشيد فيها ببيرك وحبه للعرب والمسلمين وامتلاكه ناصية اللغة الفرنسية ومعرفته الواسعة العميقة باللغة العربية وتوظيفه هذا كله فى ترجمة القرآن الكريم إلى لسان الفرنسيس وإبرازه ما فى الإسلام من استنارة ونزعة عقلانية واضحة ، ومن ثم جاءت ترجمته مفعمة بانفعالات الروعة والرهبة والجمال والجلال على حد قوله(٨) .

فإذا انتقلنا إلى الجانب الآخر ، وهو جانب المعترضين القادحين ، رأينا د. زينب عبد العزيز تهاجم بيرك مهاجمة شرسة متهمةً الترجمة

---

(٧) د. محمود العزب / جاك بيرك وترجمة القرآن الكريم / مجلة « إبداع » القاهرية / العدد التاسع / سبتمبر ١٩٩٥م - ربيع الثانى ١٤١٦هـ / ١٣ ، وإن كان قد أشار أيضًا إلى فى أن الترجمة أخطاءً استخرجها وبوّبها وأعطاها لبيرك لكى يعيد النظر على ضوئها فى ترجمته عندما يفكر فى إصدارها فى طبعة جديدة .

(٨) انظر أحمد عبد المعطى حجازى / نعم لڤولتير ، لا لبونابرت / سلسلة «مكتبة الأسرة» / ١٩٩٨م / ٩٥ وما بعدها . وكان حجازى قد نشر هذا الكلام قبل ذلك بقليل فى صحيفة « الأهرام » كما قلنا .

بكثرة الأخطاء التى تنبئ بجهل صاحبها وفساد نيته . ولها فى هذا الموضوع كتاب ظهرت له فى عام ١٩٩٤م طبعتان مختلفتان بعنوان « ترجمات القرآن الكريم إلى أين ؟ وجهان لچاك بيرك»[٩] ، وهو يتجاوز المائة صفحة بقليل. ورغم الأخطاء الكثيرة التى ساقتها فى كتابها هذا فإنها تؤكد أن تلك الأخطاء ليست إلا غيضا من فيض ، إذ لا تعدو أن تكون أمثلة قليلة التقطتها أثناء قراءتها السريعة العابرة لترجمة بيرك ، وإن أقرت للرجل بأن الجهد الذى بذله فيها طوال ما ينوف على عشرة أعوام « هو جهد عملاق » وبأن معرفته بلغة قومه ولغة العرب هى فوق كل شك[١٠] . على أن كتابها الآنف الذكر لا يقتصر على نظراتها فى ترجمة بيرك بل يضم أيضا رأيها فى دراسته التى ألحقها بتلك الترجمة والتى تؤكد هى أنها تدور على عدة محاور: منها التشكيكُ فى نزول القرآن من السماء وفى منهج ترتيبه وجمعه ، وادعاءُ تأثره بالشعر الجاهلى والفكر الإغريقى ومزامير داود واحتوائه على خطّ أسطورى ميثولوچى لفلسفة تاريخية كوارثية النزعة، والزعمُ بأن عقلانيته تؤدى إلى نوع من التأليهية فى الإسلام وأن صورة الذات الإلهية الموجودة فيه هى صورة فظيعة تبعث القشعريرة والرعب فى القلوب ، إلى جانب انتقاده معيارية القرآن وتأكيده أنها أبعد ما

(٩) عن « دار الهداية » بالقاهرة .

(١٠) انظر كتابها المذكور / ١٠ .

تكون عن التقنين ، بمعنى أن كل ما لم يتم تحريمه يعد مباحًا ، ومن ثم فإن الفقه الإسلامى هو عبارة عن تراكمات قضائية لا وجود لها فى القرآن ، فضلا عن دعوته لفصل الدين عن السياسة وإثارته لفتنة خلق القرآن وادعائه أن القرآن قد حرّف قصص الكتاب المقدس ... إلخ(١١) .

وكانت الأستاذة الدكتورة قد أرسلت مقالاً لأحمد عبد المعطى حجازى على « الأهرام » غِبَّ ظهور ترجمة بيرك للقرآن الكريم تهاجم فيه الترجمة وصاحبها ، لكنه لم ينشرها لما يقول إنه ألفاه فيها من عبارات قاسية وشطط فى التعبير وفجاجة فى الصراحة ، وزاد على ذلك فاتهمها بأنها « ربما كانت تسعى لنيل مكافأة مشروطة بأن تقول فى بيرك ما قالته بهذه الصراحة الفِجَّة قَصْدَ النيل من الكرامة والحطّ من القدر لا قصد النقد والتقييم » وبأن ما كتبته إليه ليس إلا كلامًا فارغًا ، كما وسم الحملة التى تعرض لها بيرك وترجمته بأنها حملة مبتذلة قائمة على الأكاذيب(١٢) .

---

(١١) المرجع السابق / ١٤ وما بعدها .

(١٢) انظر كتاب حجازى « نعم لفولتير ، لا لبونابرت » / ٧٤ وما بعدها .
والملاحظ أن الأستاذ حجازى لم يذكر الأستاذة الدكتورة بالاسم بل ألمح إليها إلماحًا . وقد خَمَّنْتُ فى البداية أنها هى المقصودة ، ثم سعيت إلى معرفتها ومهاتفتها فأكدتْ لى أن ما خمنته هو الصواب .

والحق أن الأستاذ حجازى ليس له حق فى الموقف الذى وقفه من المقال المذكور . لقد كان أحرى به أن ينشره عملاً بمبدإ حرية التفكير والتعبير ، وكان فى مستطاعه ، إذا شاء ، أن يعلّق عليه بما يعنّ له . أما أن يعتّم عليه كل هذا التعتيم ويصفه ويصف صاحبته بما وصفهما به دون أن يعطى للقراء فرصة الاستماع إلى وجهة النظر الأخرى والحكم بأنفسهم على ما قالته والموازنة بينه وبين كلامه عنها فذلك أمر غريب جدا ، وبخاصة منه ومن أمثاله الذين يتباكَوْن ليل نهار حزنا على ضيق طائفة من الناس بحرية الفكر والنشر . لقد هاجم أحمد عبد المعطى حجازى وما زال يهاجم هذه الطائفة هجومًا ساحقًا فى كتاباته التى لا يتمتع بما يتمتع به فيها من حرية إلا القليلون ، وسمّى اتجاهها بـ « فقه المصادرة » ، وأصدر فى ذلك ملفًا كاملاً فى أحد أعداد مجلة « إبداع » (التى يشرف على تحريرها) تحت هذا العنوان نفسه (١٣) ، فما الذى جعله يقوم بمصادرة ذلك المقال ؟ أليس هذا هو « فقه المصادرة » الذى يعيبه على خصومه فى الاتجاه والرأى ؟ أليس هذا أسطع دليل على أن كثيراً منا يقولون ما لا يفعلون ويرمون غيرهم بما قد يكونون هم أشد اتصافا به مهتبلين فرصة توفر منبر للكتابة والنشر لهم حُرِم منه مخالفوهم ؟

---

(١٣) هو العدد السادس لعام ١٩٩٩م الصادر فى شهر يوليه .

تلك مقدمة أردت أن أوطئ بها لدراستى عن ترجمة چاك بيرك التى آمل أن تكون دقيقة وموضوعية على قدر ما تسمح به بشريتى وظروفى . وأول شىء أود أن أقوله فى هذه الترجمة هو أن أسلوبها لا يتمتع بما تتمتع به ترجمات ساڤارى أو مونتيه أو ماسُّون على سبيل المثال من سهولة وسلاسة وانسيابية . إن فى لغة بيرك عسرا وحذلقة للأسف يجعلان قراءة ترجمته عملاً غير مريح . على أن هذه المقارنة لا تعنى أن ترجمة ساڤارى أدق من ترجمة بيرك مثلا ، إذ إن ساڤارى لم يتقيد فى ترجمته إلا بالمعنى العام أو المقارب فى كثير من الأحيان، كما أنْ فى ترجمة مونتيه أخطاء وإساءةً إلى القرآن والنبى عليه السلام لا تقل عما عند بيرك . أقول هذا لأن د. محمد رجب البيومى قد وصف ترجمة مونتيه (على السماع للأسف) بأنها أحسن الترجمات الفرنسية وأوفاها وأكثرها انطباقا على الأصل ، كما وصف المقدمة التى كتبها لها صاحبها بأنها حافلة وأمينة ، وبالمثل مدح ترجمة بلاشير بأنها ترجمة جيدة ، وأخذ على بيرك أنه لم يرجع إلى هاتين الترجمتين يستشيرهما عندما لم يكن السياق يسعفه بالمعنى الذى اختاره لبعض الألفاظ (١٤) . ولمن شاء من القرّاء أن

---

(١٤) انظر « إعادة قراءة القرآن ـ الدكتور محمد رجب البيومى يرد على چاك بيرك » / ٢٣ ـ ٢٥ ، ٣٧٥ ـ ٣٧٨ .

يرجع إلى الفصول الأربعة التى خصّصتُها من كتابى « المستشرقون والقرآن »[(١٥)] لدراسة هاتين الترجمتين وآراء صاحبيهما فى كتابنا المجيد ليتأكد بنفسه أن ما قاله د. البيومى فى هذا الموضوع بعيد عن الصواب بعداً شاسعًا . كذلك لا بد من التنبيه إلى أن بيرك لم يغفل الإفادة من ترجمة بلاشير والرجوع إليها ومناقشة صاحبها فى كثير من المواضع . ولعل بلاشير هو أكثر الأسماء الاستشراقية تردّدا فى هوامش بيرك على ترجمته التى نحن بصددها .

هذا ، وقد رأينا ، فيما سبق ، كيف كال الجميع تقريبا المديح كَيْلاً لبيرك على إحاطته بلساننا العربى، بيْد أننا نصاب بالدهشة الكبيرة عندما نجده لا يحسن نطق الكلمات العربية حتى السهل منها الذى لا يشكل أية صعوبة فى ضبط حروفه ، مثل « أَتّخذوا » و « أُتخَذوا » (بفتح الهمزتين بدلاً من كسرهما / هامش الآية ١٢٥ من « البقرة » / ص ٤٢) ، و«السُّنَام» (بضم السين بدل فتحها / هـ الآية ١٥٨ من نفس السورة / ص ٤٦) ، و « أَعْتَدَى » (بفتح الهمزة بدلا من كسرها / هـ الآية ١٧٨ من نفس السورة / ص ٤٩) ، و «حَبَطت» (بفتح الباء بدلا من كسرها / هـ الآية ٢٢ من « آل عمران » / ص ٧٢)، و « أَتقُوا » (بفتح همزة فعل

(١٥) صدر عن « دار الحقوق » بالقاهرة فى ١٩٨٤م .

الأمر بدلا من كسرها / هـ الآية الأولى من سورة « النساء »/ ص ٩٤) ، و«صَقال (الروح) » (بفتح الصاد بدل كسرها / هـ ١٢٥ من السورة السابقة / ص ١١٣) ، و« أَسْتَحَقَّ » (بفتح همزة الماضى بدل كسرها / هـ الآية ١٠٧ من سورة « المائدة » / ص ١٣٨) ، و « (يوم يأتى) تأويلَه » (بفتح لام « تأويله » رغم أنها فاعل / هـ الآية ٥٣ من سورة « الأعراف » / ص ١٦٩) ، و«يَهْدِى» (بدلا من « يِهِدِّى »/ هـ الآية ٣٥ من سورة « يونس »/ ص ٢٢١) ، و « سرّوون » (بدلا من «سرو» بمعنى « الشرف » / هـ الآية ٢٤ من نفس السورة / ص ٣٢٢) ، و«عَكْرَمَة» (بدل «عكْرِمة» / هـ الآية ٤٠ من سورة « الحج » / ص ٣٥٦) ، و«أَسَاؤوا» (التى يَعُدّها قراءة أخرى فى « أساؤوا (السُّوأى) » / هـ الآية ١٠ من سورة « الروم » / ص ٤٣٢ ، ولا أدرى كيف يمكن أن تكون هذه كلمة عربية !) ، و«(النذير) العَرْيان » (بفتح العين بدل ضمها/ هـ الآية ٤٥ من «فاطر» / ص ٤٥٢) ، و « الجِلْباب » (بضم الجيم بدلا من كسرها / هـ الآية ٥٩ من نفس السورة / ص ٤٥٥) ، و « بنو » سَلِمَة » (بكسر اللام بدل فتحها / هامش عنوان سورة « يس » / ص ٤٧٠) و« اِصْطَفَى (البنات على البنين) » (بكسر همزة «أَصْطَفَى» ، والصواب فتحها لأنها همزة استفهام / هـ الآية ١٥٣ من « الصافات » / ص ٤٨٤) ، و « ابن

الزِّعْبَرى » (بدل « ابن الزِّبَعْرَى » / هـ الآية ٥٧ من « الزخرف » / ص ٥٣٢) ، و« مُذِّكِر » (بالذال بدلا من الدال / هـ الآية ١٥ من سورة « القمر » / ص ٥٧٩) ، «نحّاس» (بتشديد الحاء مع فتحها بدلا من فتحها فقط / هـ الآية ٣٥ من « الرحمن »/ ص ٥٨٤) ، و « يَسْلِكه » (بكسر اللام بدل ضمها / هـ الآية ١٦ من سورة «الجن») ، و « رَكَبَ » (بفتح الكاف بدل كسرها / هـ الآية ١٩ من « الانشقاق » / ص ٦٧٠) ، و«الكَسَائى » (بفتح الكاف بدل كسرها / هـ الآيتين ٢٥ ـ ٢٦ من « الفجر » / ص ٦٧٩) ، و«عِلُوقا (مصدر « عَلَقَ ») » (بفتح العين بدلا من ضمها / هـ الآية الثانية من سورة «العَلَق » / ص ٦٨٧) .

وإذا كان بيرك يخطئ مثل هذه الأخطاء الفاحشة فى نطق تلك الكلمات التى لا تشكّل أية صعوبة فلا بِدْع أن يخطئ فى الإعراب فيقول مثلا إن « الأرحام » فى قوله تعالى : « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » هى مفعول ثان لـ « اتُّقوا » (وصوابها أنها معطوفة على لفظ الجلالة / هـ الآية الأولى من « النساء » / ص ٩٤) ، وإن « ليّلاً » فى قوله عز من قائل : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً ... » حال (رغم أنها « ظرف » / هـ الآية الأولى من « الإسراء » / ص ٢٩٣) ، وإن قوله تعالى : « إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم » هو تتمة لقوله سبحانه قبل ذلك : « إن الذين كفروا

بالذِّكْرِ لما جاءهم » (هـ الآية ٤٣ من سورة « فُصِّلَتْ » / ص ٥١٧) . ونصّ الكلام الفاصل بين العبارتين هو : « وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . تنزيل من حكيم حميد * ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك » . وواضح أنه حدث انقطاع بعد قوله : « لما جاءهم » على عادة الأسلوب القرآنى فى مثل هذه المواقف. كما يقول إن « دين القيِّمة » عبارة عن منعوتٍ نكرة ونعتٍ معرّف بـ « أل » (رغم وضوح كونها مضافا ومضافا إليه / هـ الآيتين ٤ ـ ٥ من سورة « البينة » / ص ٦٩٠) .

على أن ضعفه فى لغتنا لا يقتصر على هذا وذاك ، بل ينضاف إليهما اضطرابه فى استخدام المصطلحات البلاغية ، إذ يرى مثلا فى الآيتين الرابعة والثانية والثلاثين من سورة « الجاثية » (ونصهما : «وفى خلقكم وما يبثّ من دابة آياتٌ لقوم يوقنون » ، « وإذا قيل : إن وعد الله حَقّ ، والساعة لا ريب فيها ، قلتم : ما ندرى ما الساعة ! إنْ نظنُّ إلا ظنًا ، وما نحن بمستيقنين ») ردًا للأعجاز على الصدور(هـ الآية ٣٢ من « الجاثية » / ص ٥٤٣) ، رغم أن هذا اللون البديعى لا يكون إلا فى الجملة الواحدة أو فى البيت الواحد من الشعر أو فى آخر البيت وأول البيت الذى يليه ، فضلا عن أنه لا يصدق إلا على

تكرار اللفظ نفسه بنفس معناه أو بمعنى آخر على سبيل الجناس ، وما إلى ذلك ، وليس منه بطبيعة الحال هاتان الآيتان الكريمتان كما هو جلىٌّ للعين . كذلك يقول عن سورة « الليل » إنها قائمة كلها على الجناس بالألف (هامش عنوان السورة / ص ٦٨٢) ، والصواب أنها مبنية على سجعة الألف لا على التجنيس . والطريف أنه استخدم الكلمة الفرنسية الصحيحة ، وهى « assonancé »(١٦) .

أما فى الترجمة نفسها فقد لاحظت أنه قد يُسْقِط بعض الألفاظ أو يستبدل بها ألفاظا أخرى لا تؤدى المعنى المراد أو يتصرف فى الترجمة تصرفا مخلا أو يأتى بترجمة غير دقيقة : فعلى سبيل التمثيل نراه يغيّر كلمة « بناء » فى قوله تعالى : «الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء » إلى « قُبّة : une voûte » (الآية ٢٢ من « البقرة » / ص ٢٨) . وبالمناسبة فهذه الكلمة لم ترد فى القرآن الكريم البتة ، علاوة على أنها تفسد المعنى ، وقد تكون سببا فى تعلّل بعضهم على القرآن بحجة أنه يصف السماء بالتقبُّب رغم أنه لا قبة هناك بل أجرام سماوية موزعة هنا وههنا تدور حولها كواكبها بأقمارها . كذلك فإنه يحوّر قوله تعالى عن إبليس : « وكان من

(١٦) أحب أن ألفت نظر القارئ إلى أن قلة الأمثلة التى سقتها هنا على أخطائه فى الإعراب واستخدام مصطلحات البلاغة إنما ترجع إلى ندرة تعرض بيرك لهذه الأمور فى حواشيه لا إلى أن أخطاءه قليلة فى ذاتها .

الكافرين » إلى « وكان أول الكافرين : le premier des dénéga- teurs » (الآية ٣٤ من نفس السورة / ص ٣٠). ومن ذلك ترجمته لقوله عزّ شأنه : « فذبحوها وما كادوا يفعلون » بـ «ذبحوها مقطّبي الوجه » (الآية ٧١ من السورة ذاتها / ص ٣٥) . ومثله قوله جلّ وعزّ عن اليهود : « وقالوا : قلوبنا غُلْف » ، الذى ترجمه بيرك إلى « قلوبنا معتمة : opaques » ، مضيفا فى الهامش أن « غُلْف » هى جمع « أَغْلاف » (وهو خطأ صوابه « أَغْلَف ») بمعنى أنها فى غلاف أو ظرف ، ومن هنا وُصف بها الشخص غير المختون (الآية ٨٨ من السورة السابقة وهامشها / ص ٣٧ ، وكذلك الآية ١٥٥ من « النساء » / ص ١١٦) . ولست أعرف السبب فى أنه لم يحافظ على اللفظ الأصلى ، وبخاصة أن هذه الصورة قد تكررت فى العهد القديم ، فكان هذا دليلاً على دقة القرآن وأمانته المتناهية فى ترجمة كلام القوم كما هو(١٧) ، إلا أن حذلقة المستشرق الفرنسى

---

(١٧) كما فى النصوص التالية : « وإنى أيضًا سلكتُ معهم بالخلاف وأتيت بهم إلى أرض أعدائهم إلا أن تخضع حينئذ قلوبهم الغُلْف ويستوفوا حينئذ عن ذنوبهم » (لاويين / ٢٦ / ٤١) ، « لأن كل الأمم غُلْف ، وكل بيت إسرائيل غُلْف القلوب » (إرميا / ٩ / ٢٦) ، « فاختتنوا غُرْلة قلوبكم ولا تصلّبوا رقابكم بعد » (تثنية / ١٠ / ١٦) ، و « يختن الرب إلهك قَلْبَك وقلب نسلك لكى تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك لتحيا » (تثنية / ٣٠ / ٦) .

قد أفسدت الأمر كله .

ومع ذلك فالفساد أشدّ فى استبداله كلمة « نَدِم » بـ « تاب على » فى قوله تعالى جَدّه عن نفسه مخاطبا اليهود : « فتاب عليكم » ، جاعلاً معنى العبارة : « فندم من أجلكم » (الآية ١٨٧ من سورة « البقرة » / ٥١) . وهو ، فى هذا ، يجرى على سنة العهد القديم ، الذى تكررت فيه نسبة الندم إلى المولى سبحانه كما هو معروف لكلّ ملمٍّ بالكتاب المقدس . وقد سبق له فى أحد الهوامش أن حاول تسويغ إسناد هذا الفعل إلى الله عز وجل رغم أنه لا يخطئ كالإنسان حتى يتوب أو يندم فقال إن الكلمة العربية واحدة بالنسبة لله وللإنسان معًا ، وإن قاموس « Littré » قد ذكر أن من معانى « répentir » : « يغير قراره » (هامش الآية ٥٤ من «البقرة»/ ص ٣٢) . لكننا بدورنا نسأله سؤالا واحدا : هل يصح أن يقال عن الله إنه يغير قراره ؟

وإذا كنا قد رأيناه يتجاهل ما جاء فى العهد القديم عن غُلْفة القلوب، فإنه فى موضع آخر يصنع العكس رغم أن ما جاء فى القرآن الكريم بشأنه يختلف عما فى ذلك الكتاب . وتفصيل القول أنه ترجم قوله سبحانه : « فاعتزلوا النساء فى المحيض » (وهو نهى للأزواج عن مباشرة زوجاتهم فى وقت الحيض) إلى « فاعزلوا النساء فى

المحيض : ... Isolez » (الآية ٢٢٢ من نفس السورة / ص ٥٦) . ذلك أن المرأة (حسبما جا فى العهد القديم) إذا اعتراها الطمث فكل من يمسّها يكون نجسًا حتى المساء ، وكذلك كل ما تضطجع عليه ... إلخ[١٨] . وعلى ذلك فليس أمام اليهود من سبيل إلا عزل النساء الحائضات عنهم تجنبا لهذا العنت الذى أراح الله المسلمين منه مكتفيا بنهيهم عن مجامعة زوجاتهم أثناء حيضهن .

ومن هذا الباب أيضا تكرُّر ترجمته لعبارة « أُولو الألباب » بـ « أُولو الأَنخعة (جمع « نُخَاع ») » ، وشتان بين اللبّ هنا وبين النخاع (الآية ٢٦٩ من « البقرة » / ص ٦٥ ، والآية ٧ من « آل عمران » / ص ٧٠ ، والآية ٩ من سورة « الزمر » / ص ٤٩٥ ، وفى مواضع أخرى كثيرة) . وقد رجعت إلى عدد من الترجمات الفرنسية للقرآن المجيد لأرى أهناك مَنْ صَنَع صنيع بيرك هذا فوجدت أن سافارى مثلا يقول عن « أُولى الألباب » فى آية «البقرة» المذكورة : « qui sentent ce bienfait » ، أما كازيمرسكى فيصفهم بأنهم « doués de sens » ، بينما نجدها عند مونتيه ومحمد حميد الله وماسون : « doués d'intelligence » ، وعند بلاشير والصادق مازيغ : « doués d'esprit » ، وعند ماردرى :

(١٨) لاويين / ١٥ / ١٩ وما بعدها .

« doués de comprehension » ، وعنـد صلاح الدين كشريد : « doués de cerveaux » ، وعند جروسچان « les intelligents».

أى أن بيرك قد تنكب سبيلا سلسة ممهّدة أمامه وضرب على غير هدى فى طريق أخرى مظلمة وعرة كلها أخطار . من هنا إذن نفهم ثورة د. زينب عبد العزيز عليه وصيحتها بأن إصراره على هذه الترجمة يفوق أى تعليق . أما قولها عقب ذلك إننا « لو سلمنا جدلا بأن معنى « moelle : نخاع » المجازى فى اللغة الفرنسية يعنى أهم ما فى الشىء، فإن وقعها فى الترجمة يثير السخرية لدى القارئ . ذلك لأن معناها الحرفى أو المباشر (أى النخاع) هو الأكثر شيوعا»[١٩] ، فإن تعليقنا عليه هو : وحتى لو كان معنى « moelle » المجازى فعلا هو أهم ما فى الشىء وكان ذلك من الشهرة وألفة الناس له بمكان ، فينبغى ألا يفوتنا أن « النخاع » بمعنى « أهم ما فى الشىء » أمر يختلف تماما عن « اللب » بمعنى « العقل السليم والبصيرة النيّرة » . أى أن الأسداد مضروبة على بيرك متى وأيان وكيفما اتجه .

ومن عجائب بيرك فى ترجمته للقرآن أنه لم يَحْدُث أن أبقى لفظ الجلالة « الله » كما هو رغم أنه اسمُ عَلَم ، والأعلام (كما هو معروف) لا يعتريها تبديل عند الانتقال من لسان إلى آخر ، بل

---

(١٩) انظر كتابها « ترجمات القرآن إلى أين ؟ وجهان لجاك بيرك » / ٢٤ .

نراه يترجمها فى كل مرة بـ « Dieu » . أتراه يكره هذا الاسم الذى يُعْرَف به المولى عز وجل فى دين محمد عليه الصلاة والسلام ؟ إنه بهذا الصنيع قد قضى على خصوصية الإسلام فى هذا الشأن . ومثله عبثه بترجمة كلمات « الزكاة » و « الجهاد » و « المسجد » على ما سوف يأتى بيانه فى الصفحات المقبلة .

كذلك يترجم هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة بـ «Exode» (الآية ١٠٠ من سورة « النساء » / ص ١١٠ ، والآية ٧٤ من نفس السورة/ ص ١٩٧ مثلا) ، مع أن الـ « Exode » هى هجرة شعب بأكمله هجرة جماعية ، أما هجرة المسلمين تلك فكان يقوم بها أفراد أو جماعات متفرقة ، ولم يخرجوا كلهم دفعة واحدة كما فعَل اليهود عندما فروا من وجه فرعون وملَئه . ومعروف أن هناك سفراً كاملاً فى العهد القديم عن ذلك الحدث التاريخى عند اليهود يسمى « L'Exode : الخروج » . وقد تصفحت الترجمات الفرنسية التى عندى فى هذه النقطة فوجدتها تترجم الهجرة بـ « s'exiler » أو « s'expatrier » أو « s'enfuir » أو «s'émigrer» أو « aban- donner son pays » ، فهل ضاقت الدنيا فى وجه بيرك فلم يجد إلا هذه الكلمة المرتبطة باليهود ؟ ومع ذلك فيُحْمَدَ له أنه لم يَعُدَّ الهجرة هروباً مثلما جاء فى إحدى تلك الترجمات .

وبنفـس الطريقة يتحـول عنـده الفعـل « هَمَّتْ » فى قوله عز شأنه : « ولولا فضل الله عليك ورحمتـه لهمَّتْ طائفـة منهـم أن يُضِلّوك » إلى « اشتـهت : avoir envie de » (الآيـة ١١٣ مـن «النساء» / ص ١١١). كما سقطت كلمة « عندهم » من ترجمته لقولـه تعالى عن المنافقين وموالاتهم للكافريـن مـن دون المؤمنيـن : « أيبـتغـون عندهم العزّة ؟ » (الآية ١٣٩ من نفس السورة / ص ١١٤) . وفى التعبير القرآنى المشهور الذى كان يسخر به الكفار من الوحـى الإلهـى : « أساطير الأوليـن » نرى بيـرك يترجـم كلمـة « الأساطير » بـ « légendes » أى « القصص الخرافية » (الآية ٢٥ من « الأعراف » / ص ١٤٣) ، رغم أن الكلمة لم تكن قد عرفت هذا المعنى بعـد ، إذ كـان يراد بهـا آنذاك الأحـاديثُ أو القـصص المسطورة فى صحائف كما جاء فى المعاجم وكتب التفسير (٢٠) . وعلى هذه الشاكلة يتـرجم « إنكم قوم تجـهلون » بـ « إنكم قـوم

---

(٢٠) انظر فى هذه المسألة كتابىَ « المرايا المشوّهة ـ دراسة حول الشعر العربى فى ضوء الاتجاهات النقدية الجديدة »/ مكتبة زهراء الشرق / ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م / ٤٨ . وقد فصّل د. محمد رجب البيومى القول فى ردّه على بيرك وأمثاله ممن اتهموا قصص القرآن بأنها « أساطير » بالمعنى الحديث للكلمة (انظر « إعادة قراءة القرآن ـ الدكتور محمد رجب البيومى يرد على جاك بيرك »/ ٣٤٥) .

وثنيون » (الآية ١٣٨ من نفس السورة / ص ١٧٨ . وهو نفس ما فعله فى الآية ٦٣ من « الفرقان » / ص ٣٨٧ ، والآية ٥٥ من «النمل» / ص ٤٠٧) .

ومن عجائبه الفادحة أيضًا ترجمته « النبىّ الأُمىّ » بـ « le prophète maternel » ، نسبة إلى « الأمّ » على أساس أنه ﷺ كان يتيم الأب فلم يكن له إلا أُمّه (الآية ١٥٦ من سورة « الأعراف » وهامشها / ص ١٨١) . ولكن ألم يصبح عليه السلام يتيم الأم أيضا بعد ذلك بقليل ؟ (٢١) ثم هل نسب العرب إلى « أمّ » بهذا المعنى مثلما نسبوا إلى « أب » فقالوا : أَبَوِىّ ؟ أما الآن فإذا أردنا النّسب إلى « أُمّ » قلنا : « أُمومى » لا « أُمّى » ، التى يقول القدماء إن معناها أن الشخص الذى يوصف بها قد ظل على نفس الحالة التى ولدته بها أمّه من حيث الجهل بالقراءة والكتابة(٢٢) . إنه لمن المضحك أن يأتى هذا

(٢١) وإذا كان بيرك قد تحجج بأن القرآن قد أبرز يتم الرسول فالرد عليه هو أنه ذكر يتمه بإطلاق لا من جهة أبيه فقط، وكان ذلك مرة واحدة بحيث لا يستحق الأمرِ أن نقول (كما قال بيرك) إن القرآن قد ألحّ على هذه النقطة (انظر هامش الآية عنده) .

(٢٢) وبعضهم يقول إن النسبة هنا هى إلى « أُمّة » الشخص بنفس المعنى (انظر « مدّ القاموس » لإدوارد لين / مادة « أم » / ١ / ٩٢ النهر الأوسط) . وقد تعمدت أن تكون إحالتى هنا إلى معجم هذا المستشرق =

الأعجمى فى آخر الزمان ليعلّمنا لغتنا ويخطّىء فطاحل لغويينا ومفسرينا ، وذلك مستواه فى لسان الضاد على ما وضحناه آنفا وسقنا عليه الشواهد المفحمة !

ويزيد صنيعَ بيرك غرابة وفجاجة أننى لم أجد فى أية ترجمة من الترجمات الفرنسية أو الإنجليزية التى عندى ، وهى تتجاوز العشرين ، ما فى ترجمته هو . وأيا ما يكن الأمر فما السبب يا ترى فى أن بيرك قد ترجم كلمة « الأمى » حين لا تكون صفة لرسول الله بطريقة مختلفة ؟[٢٣] ومن ذلك ترجمته كلمة « الأميين » الموجودة فى قوله تعالى من سورة « الجمعة » : «هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم» بـ « les incultes » ، التى من معانيها الجهل بالقراءة والكتابة . ليس ذلك فحسب ، بل إنه يعلق فى الهامش بأن معنى الكلام هو أن محمدا أمى مثلهم لأنه واحد منهم أو أن أصله منهم فهو عربى كما هم عرب . ثم يضيف قائلا إنه يختار التفسير الثانى لأنه هو الأنسب

= الإنجليزى لا إلى معجم من تأليف أحد من العرب حتى أبين أن بيرك قد أتى أمرا إدًا لم يفعله أحد غيره من زملائه المستشرقين رغم غرابة أطوار ما يزيّفونه أحيانا ويخترعونه اختراعا .

(٢٣) فقد ترجم كلمة « الأُمّيّين » مرة بـ « الجهلاء أو الذين لا يعرفون القراءة والكتابة » ، ومرة بـ « الوثنيين » ، ومرة بـ « الغرباء » أى غير اليهود .

لعالمية الإسلام المشار إليها فى الآية التالية لهذه الآية (الآية ٢ من السورة وهامشها / ص ٦١٢) . إذن فلم كل هذا التخابث واللف والدوران ؟ وفضلا عن ذلك هل هناك أى تعارض بين المعنيين أو بين أمية الرسول (بمعنى عدم استطاعته الكتابة والقراءة) وعالمية الإسلام؟ أليس يرى القارئ أن الأمر كله لا يعدو أن يكون مماحكة فارغة ؟

وقد أشارت د. زينب عبد العزيز إلى ما قاله المستعرب الفرنسى فى دراسته الملحقة بالترجمة تبريرا لفعلته هذه فذكرت أنه « لم يكتف بهذه المغالطة السافرة فى نص القرآن بل راح يؤكدها فى دراسته التحليلية حيث يقول : لقد رأينا فى مديح وصِف به النبى وكيف كان يحترم العلاقات الشهوانية والعاطفية : « إنك لتصل الرحم » / ص ٦٧٠ . وبغض النظر عن استشهاده بالطبرى مصداقا لفرياته فمن الواضح تضامنه مع تلك النغمة النشاز التى ينشرها الغرب على سيد المرسلين من أنه كان شهوانيا غارقا فى الملذّات ، وهو ما يكشف عن موقف بيرك غير الأمين من النص القرآنى . كما أن استشهاده بعبارة «إنك لتصل الرحم» للتدليل على شهوانية الرسول لأكبر دليل على عدم فهمه للغة العربية ، مَثَله مَثَل بقية المستشرقين مدّعى

الأمانة»(٢٤) .

ولكن لم كل هذا اللف والدوران من قِبَل بيرك عند تفسيره لمعنى « النبى الأمى » ؟ إنه لا يريد أن يقرّ بأنه عليه الصلاة والسلام كان يجهل القراءة والكتابة رغبة منه ، كغيره من المستشرقين والمبشّرين ، فى اتهامه بأنه كان يقرأ الكتب القديمة ويستمد منها قرآنه. ومقطع الحق فى تفسير كلمة «الأمى» فى القرآن الكريم هو أنه الذى لا يقرأ ولا يكتب. وقد فسّرها الرسول عليه السلام هذا التفسير حين قال : « نحن أُمّة أمية لا نكتب ولا نحسب»(٢٥) . كما ذكر القرآن أن من بنى إسرائيل « أميين » ثم شرح ذلك بأنهم « لا يعلمون الكتاب إلا أمانىّ »(٢٦) . ولا يُعْقَل أن يكون المقصود هنا أنهم من الأميين ، أى من غير اليهود ، إذ كيف يكونون يهوداً وغير يهود فى ذات الوقت ؟ كذلك فقوله سبحانه : «هو الّذى بعث فى الأميين رسولا منهم»(٢٧) لا يمكن أيضًا أن يكون معناه « الأميين » ، إذ إن محمدا إنما بُعِث فى العرب ، بمعنى أنه واحد منهم، ونطقت دعوته

---

(٢٤) ترجمات القرآن إلى أين ؟ وجهان لجاك بيرك / ٥٠ ـ ٥١ .

(٢٥) البخارى / صوم / ١٣ ، ومسلم / صيام / ١٥ .

(٢٦) البقرة / ٧٨ .

(٢٧) الجمعة / ٢ .

بلسانهم ، واتجه بها أول ما اتجه إليهم ، وكانوا هم جنده فى نشرها وإقامة دولتها . ولا يقولن قائـل إن المـراد بالآية أنه بعث « إلى » غير اليهود فقط ، لأن قولنا : « بعث فى القوم الفلانيين » شىء ، و«بعث إليـهم» شىء آخر ، وبخاصـة أن اليـهـود غير مستثنين من واجب الإصاخة لدعوة محمد والانضواء تحت راية دينه، إذ رسالته ﷺ موجهة للبشر جميعا بنص آيات القرآن(٢٨) والأحاديث النبوية الكثيرة . ومن هنا فإننا لا نـرى لكلمة « الأمـى » إلا تفسيـرا واحداً هو أنه « الذى لا يعرف القراءة والكتابة » ، وهو ما فسرتها به المعاجم العربية .

ورغم هذا كله فـهناك للأسف من ينتـسـبـون إلى المسلمين ويرددون رغم ذلك مزاعم المستشرقين والمبشرين حول معرفته عليه الصلاة والسلام الكتابة والقراءة ، ومنهم د. أحمد صبحى منصور ، الذى أخذ يصول ويجول (فى مقدمته لترجمة دراسة بيرك) محاولاً المكابرة مع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكذلك الروايات التاريخية الموثقة التى تؤكـد أمية محمـد صلى الله عليه وسلم ، فهو يتساءل :

(٢٨) ومما له دلالته التى لا تخفى أن آيات سورة « الأعراف » التى وصف فيها النبى الكريم مرتين بـ « الأمى » قد أكدت عالمية دعوته ، إذ خوطب فيها عليه السلام بالكلمات التالية : « قل : يا أيها الناس ، إنى رسول الله إليكم جميعا » (الأعراف / ١٥٥ ـ ١٥٩) .

« هل نتصور عقلا أن يكون خاتم النبيين عليه السلام جاهلاً بالقراءة والكتابة ؟ » . ولا أدرى فى الواقع أية حتمية فى أن يكون خاتم النبيين قارئا كاتبا . أهو يناقض قانونا من قوانين الكون ؟ أما ما يسميه « مفاجأة » قرآنية غابت عن أذهان علماء المسلمين أربعة عشر قرنا والتفت هو وحده إليها ، وهى أن القرآن يقول عنه عليه السلام فى سورة « البينة » إنه « يتلو صحفًا مطهّرة * فيها كتبٌ قَيِّمة » (٢٩)، فإن ردّنا عليه هو السؤال التالى : ترى لو كان المقصود بالآية معناها الحرفى فأين كانت هذه الصحف ؟ ولماذا لم تأتنا ولو رواية واحدة بنبئها ؟ إن الإنسان ليقرأ تاريخ الرسول عليه السلام فى أى مصدر أو مرجع فلا يجد ذكرا لهذه الصحف أو لتلاوته منها . لم يذكر ذلك صحابى ولا تابعى بل ولا الرسول نفسه أو أية من زوجاته عليه السلام بل ولا أحد من المستشرقين والمبشرين . إن هذا الأسلوب البهلوانى فى تفسير القرآن لا يصلح من الوجهة العلمية ، فالقرآن يفسّر بعضه بعضا ، وقد جاء فى الآيات ١٣ ـ ١٦ من سورة « عبس » ذِكْر هذه الصحف المطهرة وأنها « بأيدى سَفَرَة *كرامٍ بَرَرَة » ، والمقصود الملائكة . فهى صحف غيبية لا ندرى كنهها كان جبريل يلقن

---

(٢٩) انظر مقدمة د. أحمد صبحى منصور لكتاب بيرك «إعادة قراءة القرآن»/ ٣٣ ـ ٣٤ .

الرسول عليه السلام منها ما يأمره الله بتلقينه إياه فيحفظه صلى الله عليه وسلم . وهى نفسها الكتاب المكنون الذى لا يمسه إلا المطهرون كما تخبرنا الآيات ٧٧ ـ ٨٠ من سورة « الواقعة » . وكان صلى الله عليه وسلم فى بداية أمره ، كما هو معروف ، يخشى ألا يستطيع حفظ ما يوحى إليه فكان يردد وراء جبريل ترديدا سريعا ما يلقيه إليه فنهاه ربه سبحانه عن ذلك مطمئنا إياه بأنه قد تعهّد بحفظ كتابه الكريم وبأنه عليه السلام لن ينسى منه شيئا . فلو كان ما يقوله د. منصور صحيحًا فلماذا يا ترى كان محمد عليه الصلاة والسلام خائفا ألا يَعْلَق بذاكرته ما ينزل به عليه جبريل ؟ بل لماذا يحتاج إلى حفظه أصلا ما دامت هناك صحف من الورق الذى نعرفه تنزل عليه ويحتفظ بها لديه ؟ إن د. منصور يؤكد أن الرسول كان هو الكاتب الوحيد للقرآن ، وأن ما يقال عن وجود كتبة للوحى هو هراء لا يستحق الالتفات إليه . فبالله عليك أيها القارئ لماذا كان الرسول يقوم بكتابة الوحى إذا كان الوحى ينزل عليه مكتوبا فى صحف من ورق كورقنا ؟ أليس ذلك هو العبث بعينه ؟ ثم من أخبر د. منصور أنه عليه السلام كان يكتب القرآن فضلا عن أن يكون هو كاتبه الوحيد؟ أنزل على السيد الباحث وحده دون الخلق أجمعين وحى سماوى سرّىّ يخبره بهذا الخبر ؟ فليأتنا بهذا الوحى الغريب ! الواقع أنه ما من أحد قال هذا قط طوال الأربعة عشر قرنا الماضية غير د. منصور ! وما هكذا

تكون مقاربة العلم ! وإذا كان هذا الباحث يتخذ من النص المذكور ذريعة لتكذيب العلماء المسلمين وإنكار ما يقولونه من أن القرآن كان يُكْتَب فور نزوله على سعف النخيل وقطع الحجر وما أشبه(٣٠) فإننا نفجر له مفاجأة أخرى ، ولكنها مفاجأة حقيقية هذه المرة لا كمفاجأته هو المزعومة ، وسوف نصوغها على هيئة أسئلة وعليه أن يحاول الاهتداء إلى جوابها: لقد ذكر الله سبحانه فى قرآنه الكريم صُحُفاً لموسى(٣١) أيضا ، وقال فى مواضع أخرى منه إنه قد أنزل عليه كتابا(٣٢) ، فإذا كان د. منصور لا يزال يصرّ أنها صحف فكيف يوفّق بينها وبين قول القرآن نفسه إن الله قد كتب لموسى المواعظ والتشريعات فى ألواح(٣٣) لا فى صحف أو كتاب ؟ بل ما رأيه فى أن « الكتاب المكنون » الذى جاء فى سورة « الواقعة » أن القرآن مسجّل فيه على ما مرّ بيانه قد سُمّى فى موضع آخر من القرآن ذاته بـ «اللوح

---

(٣٠) المرجع السابق / ٣٣ .

(٣١) الأعلى / ١٨ ـ ١٩ .

(٣٢) البقرة / ٥٣ ، ٨٧ ، والأنعام / ٩١ ، ١٥٤ ، وهود / ١٧ ، والإسراء/٢ .

(٣٣) الأعراف / ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٥٤. وهى ، فى العهد القديم ، هكذا أيضًا ، وإن قالوا إنها لوحان اثنان فقط لا ألواح (خروج / ٣٢ / ١٥ ـ ١٦ ، ١٩ ، ٣٤ / ١ ، ٤ ، ٢٨ ـ٢٩) .

المحفوظ» (٣٤) ؟ ثم ما قوله فى أن البهائيين يطلقون على نصوص ما زعموا نزوله من وحى على البهاء وابنه « ألواحًا » مع أنها ، بكل يقين ، مكتوبة على ورقٍ ؟ (٣٥)

ثم ألم يوصف الرسول عليه السلام بأنه أمى ؟ وهل هناك معنى للأمية غير ما هو معروف لنا من أنها الجهل بالقراءة والكتابة ؟ فليدلنا د. أحمد صبحى منصور على معجم أو كتاب فى التفسير أو غير التفسير من تراثنا العربى يفسّر الأمية بغير ذلك ! ولقد سبق أن أشرت إلى أن الرسول قد حدد معنى« الأمية» فى قوله الكريم : « نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ... إلخ » ، علاوة على قول القرآن إن فى اليهود « أميين » ، أى جهلاء بالقراءة والكتابة . أفبعد هذا يمكن أن يكون هناك مجال للجدال والمماحكة ؟

أما تفسيره العجيب لقوله تعالى : « وما كنتَ تتلو من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك » (٣٦) بأن المقصود هنا هو الكتب الدينية فقط ، فإن الرد البسيط عليه هو أن الآية تنفى نفيا مطلقا أن الرسول

---

(٣٤) البروج / ٢٢ .

(٣٥) أغلب الظن أنهم سمّوها كذلك تقليداً لألواح موسى لأن البهائية صناعة يهودية .

(٣٦) العنكبوت / ٤٨ .

كان يقرأ أو يخط قبل رسالته كتاباً أى كتاب ، وإلا لقالت : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب دينى ولا تخطه بيمينك » مثلا . فلماذا لىّ النصوص لتتسق مع أهوائنا ؟

ويبقى ما قاله الباحث بشأن قوله تعالى عن اتهام الكفار له صلوات الله عليه بأن القرآن الكريم ما هو إلا « أساطير الأولين اكتتبها فهى تُمْلَى عليه بكرة وأصيلا » (٣٧) ، فكلمة « اكتتبها » تعنى عنده أنه عليه السلام كان كثير الكتابة ، إذ إن صيغة « افتعل » في رأيه إنما تدل على تكرار الفعل ، وما دام الكفار قد قالوا إنه عليه الصلاة والسلام كان يكتب ما يُمْلَى عليه فلا بد أنه كان يكتب فعلا من الصباح للمساء ما يمليه عليه أصحابه (٣٨) . أى أن علينا أن نبنى آراءنا على ما يقوله الكفار فى حق الرسول ونرفض ما يقوله القرآن والحديث والصحابة والتابعون وعلماء المسلمين أجمعين منذ ذلك الحين إلى اليوم الذى طلع علينا فيه د. منصور برأيه هذا الشاذ !

(٣٧) الفرقان / ٥ .

(٣٨) لكى يعرف القارئ قيمة ما يكتبه د. منصور ألفت نظره إلى أنه يسمى هذا الاتهام الذى يوجهه المشركون للرسول عليه السلام « اعترافا » . ومعروف أن الاعتراف سيد الأدلة . فانظر إلى مرامى الأستاذ الباحث البعيدة ! وطبعا هذا الاتهام شىء ، والاعتراف شىء آخر مختلف تمامًا (انظر مقدمته لكتاب بيرك « إعادة قراءة القرآن » / ٤٢ ـ ٤٣) .

لقد زعم الكفار أنه صلى الله عليه وسلم ساحر وشاعر وكاهن . أفينبغى إذن أن نكذّب القرآن الذى نفى عنه السحر والشعر والكهانة ونأخذ بما قاله المشركون ؟ أرأيت إلى هذا المنطق العجيب ؟ وعلى أية حال فأين أولئك الشهود الذين رأوا النبى يكتب أساطير الأولين ثم يصوغها قرآنا ويدّعى أنه وحْى أُوحِيَ إليه من السماء ؟ بطبيعة الحال لا وجود لهؤلاء الشهود ولن يكون لهم وجود ، إذ ليس ذلك كله إلا مماحكات سخيفة من مماحكات المستشرقين والمبشرين ومن يتابعهم فى تفاهتهم وفهاهتهم ! وعلى أية حال أيضاً فليس فى صيغة «افتعل» هنا ما يدل على التكرار . وها هى ذى المعاجم بين أيدينا لا تذكر هذا المعنى بين معانى « اكتتب » . والحق أن المقصود هنا هو أنه صلى الله عليه وسلم ، حسب مزاعم المشركين ، كان يأمر من يكتبها له ، وهذا أحد معانى الفعل . وقد ورد بهذا المعنى فى عبارة لابن هشام عند حديثه عن وفود قبيلة ثقيف على رسول الله سنة تسع ، إذ قال إنهم « اكْتَتَبوا كتَابهم » . وكان هو نفسه قد ذكر أن كاتب هذه الاتفاقية هو خالد بن سعيد بن العاص أحد صحابة النبى (لا أحد أعضاء الوفد الثقفى)[٣٩] .

(٣٩) انظر سيرة ابن هشام / تقديم وتعليق طه عبد الرءوف سعد / مكتبة الكليات الأزهرية / ٤ / ١٣٧ .

وبعد ، فليس مصادفة أن يكون ما قاله أحمد صبحي منصور هو ذاته ما قاله المستشرقون والمبشرون ، وإن كانت مقدمته لكتاب چاك بيرك هى فى الظاهر ردًا على هذا المستشرق ، على حين أنها لم تردّ عليه إلا فى نقطة واحدة اتُّخِذَتْ منطلقًا لمهاجمة علماء الأزهر والزراية عليهم واتهامهم بأنهم يرافئون المستشرق الفرنسى على ما يقول وكذلك للدعاية للأفكار الخطيرة التى أخذها عن المستشرقين حذوك النعل بالنعل . وقد سبق أن رددت على هذا الزعم الاستشراقى فى كتابى « مصدر القرآن ـ دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى » [٤٠] ، فلْيرجع إليه القارئ الكريم ، ولسوف يجد أن الدكتور أحمد صبحى منصور لم يأت بأى شىء من لدنه تقريبا .

فإذا عدنا إلى بيرك فإننا نجده ، فى الآيات التى تتحدث عن الجهاد ، يستعمل كلمة « effort » أى « الجهد » . وليس « بذل الجهد » هو « الجهاد » كما يريده الإسلام ، فالإنسان يبذل جهده فى أى شىء يفعله ولا يسمَّى مع ذلك جهادا ، اللهم إلا إذا كان الجهد المبذول جهداً حربيا بالمال والنفس من أجل الدفاع عن الأمة والدين . وعلى هذا فإنه يترجم قوله عز من قائل : « وجهادٍ فى سبيله (أى فى سبيل الله) » بـ « et l'effort sur son chemin » (الآية ٢٤ من سورة « التوبة » / ص ٢٠١ ، وفى مواضع أخرى

---

(٤٠) مكتبة زهراء الشرق / ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م / ١٠٥ ـ ١١٠ .

كثيرة) . وهو ، بطبيعـة الحـال ، يعـرف تمام المعرفة المقصود من « الجهاد » فى القرآن الكريم ، ولكن نفسه لا تطاوعه على الترجمة الصحيحـة . وحتى عندما لم يكن هناك مناص من النص على معنى « الجهاد » كما هو فى الإسلام فقد تعمد أن يكون هذا التوضيح فى الهامش وفى أضيق الحدود مع الإصرار على استخدام كلمة « ef- fort » أيضاً ، كما فى قوله تعليقـا على آية أخرى من نفس السورة: « إن المقصود هنا هو الجهد فى المعركة أو الجهاد : Jihâd » ، أما فى الترجمـة نفسهـا فقد اقتصر على استعمال الفعل « s'éfforcer : يبذل جهدا » (الآية ٤١ من السورة السابقة وهامشها / ص ٢٠٤).

ويشبه هذا إلى حدّ كبير ترجمته « أحبار » بـ « docteurs » ، التى تعنى عند إطلاقها فى الاستعمال الحديث « أساتـذة جامعيين أو أطبـاء » (الآية ٣٤ من نفس السـورة / ص ٢٠٣) . وقـد كـان أجدر به ، ما دام يصرّ على استعمـال هذه الكلمة الواسعة فى هذا المعنى المخصوص، أن يوضح الأمر فى الهامش(٤١) . وقد وجدت مثلا

(٤١) يذكر قاموس « Larousse Classique » أن من معـانى هذا اللفظ «théologiens» ، لكننا الآن فى العصر الحديث حيث أصبح للكلمة معانٍ أخرى ينصرف إليهـا الذهـن توّ سماعهـا أو قراءتهـا ، فضلا عـن أن لفـظ « théologiens » ، وإن دل على رجـال اللاهوت ، هو لفظ عـام أيضًا فـى هـذه الدلالة ، على حين أن « الأحبـار » هم رجـال دين مخصوصون .

سافارى يترجمها إلى « prêtres » والصادق مازيغ وصلاح الدين كشريد إلى « rabbins » . ومع هذا فالحق يقتضى أن أذكر أن كازيمرسكى ومونتيه وماسون وجروسچان بل ومحمد حميد الله أيضا قد قالوا مثل بيرك : « docteurs » . لكن ترجمة مَجْمَع الملك فهد، وهى ترجمة تنطلق من ترجمة حميد الله ، قد غيّرت «docteurs» الموجودة فى ترجمة هذا الأخير إلى « rabbins » ، التى أحسب أنها أدق الترجمات وأوضحها وأشدّها تسديدا . وأحسب أيضًا أن مثل هذا الاعتبار هو الذى أملى على ريچى بلاشير ، عند استخدامه لكلمة « docteurs » ، أن يحددها بين معقوفتين على النحو التالى : « docteurs [Juifs] » ، أى أن « الدكاترة » هنا هم علماء اليهود بالذات لا العلماء بإطلاق .

ومن غرائب بيرك أيضًا إصراره ، فى كل الحالات تقريبا ، على ترجمة « آيات (القرآن) » إلى « signes » ، أى علامات (مثلا الآية الأولى من سورة « هود » / ص ٢٢٩ ، والأولى من « الرعد » / ص ٢٥٧ ، والأولى من « الحجر » / ص ٢٧١). تُرَى أمن الصعوبة بمكان أن يقول ، كما قال كازيمرسكى وماسون وجروسچان ومحمد حميد الله والصادق مازيغ وصلاح الدين كشريد: « versets » أو يحافظ على نطقها العربى فيقول: « ayas » كما فعل بلاشير ؟ إن صنيعه هذا يفسد النص إفسادًا شديدًا ويضلّل

القارئ عن المعنى المراد تماما ، إذ ما العلاقة بين « العلامات » (وهى لا تكاد تنتهى ، إذ كل شىء يمكن أن يكون علامة على شىء آخر) وبين « آيات القرآن » ؟

كذلك يفهم بيرك قوله عز من قائل : « وقيل : بُعْداً للقوم الظالمين » على أنه أمر للقوم الظالمين بأن يتأخروا مبتعدين عن المكان الذين هم فيه ، ولذلك ترجم كلمة « بُعْداً » إلى « Arrière ! » (الآية ٤٤ من « هود » / ص ٢٣٥) ، مع أن المقصود هو الدعاء عليهم بالهلاك ، فالمعنى إذن : « وقيل : سُحْقًا للقوم الظالمين » . ذلك أن « بُعْداً » هى مصدر « بَعِد » بكسر العين ، بمعنى «هلك»[٤٢] ، لا « بَعُد » بضمها . وقد وقع مونتيه فى غلطة مشابهة وهو يترجم هذه الكلمة ، إذ قال ما معناه : « امشوا من هنا ! » . وقد سجَّلت ذلك فى ملاحظاتى على ترجمة هذا المستشرق فى كتابى « المستشرقون والقرآن » [٤٣] . ويضع معجم عبد النور (العربى ـ الفرنسى » بإزاء عبارة « بُعْداً له ! » : « Puisse-t-il périr » ، وهو الصواب .

---

(٤٢) ودليل ذلك من القرآن قوله تعالى فى السورة ذاتها أيضًا : « ألا بُعْداً لمدين كما بَعِدَتْ ثمود » (الآية ٩٥) . وقد تكرر هذا الدعاء فى نفس السورة على كل قوم كافرين تقريبا .

(٤٣) انظر ص ٤٩ من هذا الكتاب .

أما ترجمة مستشرقنا عبارة « (ونزداد) كَيْلَ بَعَير » (التى وردت فى سورة «يوسف» على لسان إخوة ذلك النبى الكريم فى محاولتهم إقناع أبيهم بأن يتركهم يعودون إلى مصر ومعهم أخوهم الذى طلب يوسف منهم أن يصطحبوه إليه كى يكرمهم) فهى تستحق وقفة طويلة بعض الشىء . ذلك أنه ترجم البعير بـ « âne : حمار » (الآية ٦٥ من «يوسف» / ص ٢٥٢) . صحيح أن من معانى « البعير » الحمار وكل ما يُحْمَل عليه من الحيوان ، لكنّ هذا معنى غير معروفٍ إلا فى المعاجم تقريبا ، إذ متى ما سمع الواحد منا هذه الكلمة انصرف ذهنه على الفور إلى الجمل . كذلك لا يوجد فى أى تفسير أعرفه أن البعير هو الحمار . على أن هذا ليس هو السبب الوحيد وراء استغرابى لهذه الترجمة ، بل هناك سبب آخر هو أن إخوة يوسف فى سفرهم من فلسطين إلى مصر وفى عودتهم إليها إنما كانوا يقطعون فلواتٍ واسعة كلها رمال ، فكيف يمكن استخدام الحمار عندئذ ، والفلاة لا يصلح للسير فيها إلا الجمل بخفه العريض الطرى الذى لا يغوص فى رمالها ، وصبره الطويل العجيب على عطشها حتى إنه ليستطيع المكث أسابيع عدة على شربة واحدة يعبّ فيها الماء عبًّا استعداداً لمواجهة عدم الماء طوال هذه الفترة ، ومن هنا سُمِّى « سفينة الصحراء » ، علاوةً على تفوقه على الحمار فى السرعة وطول الخطوة؟ ثم هل يعقل أن يكون « حِمْل حمار » من القمح مما

يمكن أن يغرى إخوة يوسف بالعودة إلى مصر عبر الصحراوات الشاسعة ؟ ترى بالله ماذا يمثّل حمل حمار فى تلك الظروف ؟ وفوق هذا ففى العهد القديم والتلمود أن الإسماعيليين الذى اشتروا يوسف وانحدروا به إلى مصر كانوا يركبون جمالاً (٤٤) ، وهذا هو الوضع الطبيعى ، فكيف يشذّ إخوة يوسف ويقطعون كل تلك الفيافى والقفار المهلكة على الحمير ؟ أتراهم لم يكونوا يملكون إبلا؟ بالعكس ، لقد كان لدى أبيهم يعقوب عليه السلام جمال كثيرة بنص سفر « التكوين » (٤٥) .

ولقد سبق أن لمس هذه النقطة المرحوم مالك بن نبى فى كتابه « Le Phénomène Coranique » عند مقارنته بين قصة يوسف كما وردت فى القرآن وبينها فى العهد القديم ، وعلق قائلاً على رواية سفر « التكوين » التى تقول إن إخوة يوسف كانوا يركبون فى رحلتهم إلى أرض الكنانة وأوبتهم منها حميرا (٤٦) : « إن العبرانيين لم يعرفوا استخدام الحمار إلا بعد أن انتقلوا للعيش فى وادى النيل وعرفوا حياة

---

(٤٤) تكوين / ٣٧ / ٢٥ _ ٢٦ و , Selections from the Talmud translated by H. Polano, Frederick Warne, London, P. 76 .

(٤٥) تكوين / ٣٠ / ٤٣ ، و ٣٢ / ٨ . وقد ذكر هذا «قاموس الكتاب المقدس» أيضاً/ ط ١٠ / دار الثقافة / القاهرة / ٢٧٣ .

(٤٦) تكوين / ٤٢ / ٢٦ _ ٢٧ ، و ٤٣ / ١٨ ، ٢٤ ، و ٤٤ / ٣ .

الاستقرار . فالحمار حيوان غير معروف إلا عند الشعوب المستقرة ، ولا يصلح لقطع المسافات الشاسعة عبر الصحراء كي يأتي من فلسطين إلى مصر . ثم إنه حتى عهد يوسف كانت ذرية إبراهيم تعيش في مجتمع أبوى قبلى ترعى الحيوانات كبيرها وصغيرها » (٤٧) . أما مَلك غلام فريد فقد حاول في الترجمة القاديانية الإنجليزية للقرآن الكريم أن يوفق ، فيما يبدو ، بين الأمرين فقال إن « كيل بعير لا يعنى بالضرورة حملا موضوعا فوق ظهر جمل ، بل قد يكون معناه الحِمْل الذى يستطيع الجمل فى العادة أن يحمله رغم أنه قد يوضع على حمار » (٤٨) . لكن السؤال هو : هل يستطيع الحمار أن ينهض بحمل بعير ؟ بل هل يستطيع أصلا أن يسافر عبر الصحراء ؟ ذلك ما لم يحاول الإجابة عليه الكاتب القاديانى !

واضح أن بيرك قد لوى عنق النص القرآنى وقوّله ما قاله سفر «التكوين» مع أن الكتاب المقدس لا يصلح (كما قلتُ وأثبتَ وأثبت غيرى مرارا وتكرارا) أن يكون معيارا على القرآن أبدا . لقد قال

---

(47) Malek Bennabi, Le Phénomène Coranique, P. 154 .
(دون تاريخ أو دار نشر) .

(48) The Holy Qur'an, edited by Malik Ghulâm Farîd, The London Mosque, 1981, P. 497, N. 1391 .

القرآن: « كيل بعير » ، فينبغى المحافظة إذن عند ترجمة هذه اللفظة على ما هو مشهور لدى القاصى والدانى من أن المقصود هو الجمل لا الحمار ، وبخاصة أن القرآن قد استعمل كلمة « الحمار » مفردة ومجموعة فى عدة مواضع منه ، فلماذا يتنكبها هنا دون بقية النصوص ؟ ثم إن هذا هو ما يمليه على أذهاننا التاريخ والمنطق وطبيعة الأشياء كما بينت . وبالمناسبة فلم ترد كلمة « الحمار » فى هذا الموضع فى أية ترجمة من الترجمات الفرنسية أو الإنجليزية الكثيرة التى عندى ، ومعظمها قام بها مستشرقون .

ومن سخف صنيع بيرك ترجمته لكلمة « شديد » فى قوله تعالى عن نفسه : « وهو شديد الحال » بـ « rude » ، وهى لفظة تعنى الخشونة والجلافة ضمن ما تعنيه (الآية ١٣ من سورة « الرعد » / ص ٢٥٩) . الحق إن فى هذه الترجمة لإساءة أدب بالغة مع الذات العلية !

ومما يبعث على العجب أيضاً فى ترجمة بيرك أنه (فى حدود ما تنبهت) دائماً ما يترجم لفظة « عِباد » إلى «adorateurs : عابدين» (مثلا الآية ٣١ من سورة « الحجر » / ص ٢٦٨ ، والآية ٤٩ من «النحل» / ص ٢٧٤ ، والآية ١٥ من سورة « النمل » / ص ٤٠٤) . وحتى لو كانت « عِبَاد » هى أحد جموع « عابد » أيضاً ،

فإن المقصود بها في القرآن جمع « عبْد » ، والدليل على ذلك قوله تعالى : « فوجدا عبْدا من عِبَادنا »[٤٩] و « كانتا تحت عبْدَين من عِبَادنا صالحيْن » [٥٠]. أما من الناحية العقلية فإن القرآن كثيرا ما يطلق هذه الكلمة ومفردها (الذى يترجمه بيرك بـ « adorateur » أيضا) حتى على الكافرين الذين لا يؤمنون بالله فضلا عن أن يعبدوه، مثل قوله سبحانه : « إنْ كُلُّ من فى السماوات والأرض إلا آتِى الرحمنِ عبدا » [٥١] (إذ الكافرون يدخلون فيهم ، بل ربما كانوا يمثلون الأغلبية بينهم) ، وقوله جل جلاله : « يا حسرةً على العباد ! ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » [٥٢]، وقوله : «والنخلَ باسقاتٍ لها طَلْعٌ نضيد * رزقا للعباد » [٥٣] (وفى العباد المرزوقين كثير من الكافرين ، إن لم يكونوا هم الأكثرية) ، وقوله تعالى على لسان إبليس : « لأتخذنّ من عِبَادك نصيبا مفروضا»[٥٤]، وقوله : «أأنتم أضللتم عِبَادى هؤلاء أَم هم ضلّوا السبيل ؟ » [٥٥]. وعلى

(٤٩) الكهف / ٦٥ .

(٥٠) التحريم / ١٠ .

(٥١) مريم / ٩٣ .

(٥٢) يس / ٣٠ .

(٥٣) ق / ١٠ ـ ١١ .

(٥٤) النساء / ١١٨ .

(٥٥) الفرقان / ١٧ .

هذا فإن ما فعله بيرك ليس له إلا معنى واحد هو أن الله لا يتحدث فى القرآن بل لم يأمر رسله بتوجيه الدعوة إلا إلى المؤمنين العابدين ، وهذا بطبيعة الحال شيء لا يصدّقه عقل لسبب غاية فى البساطة هو أن الذين يحتاجون هداية السماء هم الكافرون ، فى المقام الأول على الأقل .

كذلك فرغم وضوح قوله جلّ وعلا : « خلق الإنسان من نُطفَة » فإن المستشرق الفرنسى يتجافى عن الطريق المستقيمة مفضلا تمييع الأمور ، فنراه يترجم « النطفة » بـ « قليل من السائل » (الآية ٤ من سورة « النحل » / ص ٢٧٩) . ترى ما الذى كان سيحدث لو أنه قال مثلا : « une goutte de sperme » كما جاء فى إحدى الترجمات الفرنسية الأخرى ؟ ومثل ذلك ترجمته كلمة « دفء » فى قوله عز شأنه : « والأنعامَ خلقها لكم فيها دفء » إلى « tiédeur » (الآية ٥ من نفس السورة والصفحة) ، وهى تعنى الفتور والخمول وضعف النشاط . وحتى من ناحية الحرارة فإن هذه الكلمة تُطْلَق على ما كانت سخونته غير كافية . أليست هذه الترجمة إذن، بالله عليك أيها القارئ ، فاترة مائعة ؟

وفى قوله تعالى : « ويسألونك عن ذى القرنين . قل : سأتلو عليكم منه ذِكْرا » نرى بيرك قد أسقط كلمة « قل » من

الترجمة (الآية ٨٣ من « الكهف » / ص ٣١٦) . وهذا يذكّرنا بما دعا إليه بعض الناس فى عصرنا من إسقاط هذه الكلمة من القرآن عندما يكون الرسول هو المخاطب بها ! ولله فى خلقه شؤون !

ومن عدم دقة بيرك فى الترجمة أيضًا ترجمته قولَه سبحانه عن مريم : « فاتخذتْ من دونهم حجابًا » إلى « فتغطَّت بنقاب » (الآية ١٧ من « مريم » / ص ٣٢١) . لقد ترجمها صلاح الدين كشريد مثلا على النحو التالى : « Elle se cache à leurs yeux derrière un écran » . ترى أفلم يكن بيرك قادرا على أن يقول شيئا شبيها بهذا ؟ وفى نفس السورة أيضًا نشاهده يترجم « المخاض » فى قوله تعالى : « فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة » بـ « الآلام» (الآية ٢٣ / ص ٣٢٢)، والآلام كثيرة لا تُعَدّ ولا تُحْصَى ، وليست آلام المخاض إلا لونا واحدا منها ، فكيف يصح ترك التخصيص إلى التعميم الواسع الذى لا يُحَدّ بمثل هذه الخفة ، أو بالأحرى بمثل هذا الاستخفاف؟

ومثل ذلك أيضًا ترجمته كلمة « مُضْغَة » فى قوله عزّ وجلّ : « ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين * ثم جعلناه نُطْفَةً فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علَقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظاما لحما ... » إلى « mâchure » ، التى

فسّرها بأنها قطعة من اللحم قدر ما يمضغ الإنسان (الآية ١٤ من سورة « المؤمنون » وهامشها / ص ٣٦٢) . ولى على هذا الكلام تعليقان : الأول أن المضغة هنا إنما هى مرحلة من مراحل تكوين الجنين ، وهذا شيء ، ومعناها الحرفىّ الذى يشير إليه بيرك شيء آخر مختلف . والثانى أن كلمة « mâchure » إنما تعنى « نُحْلة القماش» لا مضغة اللحم ! فما العمل إذن ؟ هلا قال كما جاء فى معجم عبد النور : « caillot de sang » ؟ وهو ما اختارته أيضًا الأستاذة ماسّون ، وبقريب منه قال الصادق مازيغ : « caillot sanguine » .

ومما تصرف فيه أيضًا مستشرقنا فأفسد تحويلَه قوله تعالى عن نار السعير عندما تبصر الكافرين يوم القيامة : « إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيّظا وزفيرا » إلى « إذا رأَوْها من مكان بعيد ... » (الآية ١٢ من « الفرقان » / ص ٣٨٢) . وأين هذا من ذاك ؟ إن النار ، حسب ترجمته ، تكون متغيظة وزافرة دائمًا ، أما حسبما جاء فى القرآن فإنها ما إن ترى الكفار حتى يركبها الغيظ فتزفر غضبا وسخطا وتودّ لو أمسكت بتلابيبهم وأطبقت على حلوقهم وجرّتهم جرًا ! فانظر الفرق بين الصورتين ! ومن ذلك الوادى أيضاً ترجمته قوله تعالى عن شعراء المؤمنين : « وذكروا الله كثيرا » إلى « ذكروا الله دون

توقف » ، أى دون راحة يلتقطون فيها الأنفاس (الآية ٢٢٧ من «الشعراء» / ص ٤٠١) .

أما بالنسبة للرهط المفسدين من قوم صالح الذين ذكر الله أنهم كانوا تسعة ، فإن بيرك يلجأ إلى التقريب قائلا : « une dizaine » ، أى نحو عشرة (الآية ٤٨ من سورة « النمل » / ص ٤٠٧). و« نحو عشرة » قد تعنى ثمانية أو تسعة أو أحد عشر أو اثنى عشر . بالله ما ضرّه لو أنه التزم بما قاله القرآن دون هذه الحذلقة التى لا معنى لها ؟ وبمثل هذا الاستخفاف يحوّل فى الترجمة كلمة « أغرقنا » فى حديث القرآن عن قوم فرعون وأمثالهم إلى « ابتلعنا » أو « التهمنا » (الآية ٤٠ من « العنكبوت » / ص ٤٢٧). إن اللغة بهذه الطريقة تفقد دلالاتها وتتميع الحدود التى تفصل بين مفرداتها !

وعند ترجمته لعبارة « أهل البيت » فى قوله جلّ جلاله : « إنما يريد الله لِيُذْهِب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » يقول : « O maisonnée » ، ومعناها : «يا سكان البيت الواحد» ، وشتان العبارتان ، فإن أهل البيت النبوى لم يكونوا يعيشون كلهم فى بيت واحد ، بل كان لكل واحدة من أمهات المؤمنين حجرة مستقلة تشكل بيتا على حدة، كما أن عليا وفاطمة وابنيهما كانوا يعيشون فى بيت آخر . كذلك فليس ثمة مكان للدهشة التى أبداها بيرك

حين قال : « لا ينبغى أن يفوتنا استخدام ضمير جمع الذكور فى « عنكم » و « يطهركم » رغم أن الخطاب فيما مضى كان لزوجات الرسول » (انظر ترجمته للآية ٣٣ من « الأحزاب » وهامشها / ص ٤٥١) . يريد أن يقول إن هناك تنافرا بين الضمير وبين ما يعود عليه هنا . لكنا إذا عرفنا أن أهل البيت ، كما سلفت الإشارة ، ليسوا مقصورين على أمهات المؤمنين بل معهن النبى عليه السلام وعلىّ والحسنان ، فضلا عن فاطمة ، لم يكن هناك محلّ لتلك الدهشة الاستشراقية .

ومما حذفه بيرك من النص فى ترجمته الواوُ العاطفة من قوله تعالى: « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين » ، جاعلاً «السلطان» هو نفسه الآيات (الآية ٢٣ من سورة « غافر » / ص ٥٠٧) . أما فى قوله عز سلطانه على لسان فرعون : « ياهامان ، ابْنِ لى صَرْحًا لَعَلّى أبلغ الأسباب * أسباب السماوات فأطّلع إلى إله موسى » فإنه يترجم لفظ « أسباب » ترجمة حرفية قائلا : « cordes : حبال » (الآية ٣٦ من نفس السورة والصفحة) . وقد فعل مثله بلاشير وجروسچان وماسّون ، أما الترجمات الأخرى فقالت : « voies : طرق ، و régions : مناطق ، و portes : أبواب » . ومن الواضح أن من السهل قبول أى من هذه الكلمات الثلاث ، أما الحبال فكلاّ .

وعلى نفس هذا المنهج من الحرفية يترجم كلمة « منقلبون » فى قوله جل وعلا : « وإنا إلى ربنا لمنقلبون » إلى « basculer : وَقَع » ، مع أنه لا علاقة بين الوقوع هنا وبين الانقلاب ، الذى قد يكون مجيئه بعد كلام الآيات عن استواء الراكبين على ظهور الفلك والأنعام هو السبب فى وقوع بيرك فى هذا الخطإ ، إذ ظن أن المقصود هو وقوعهم من فوق ظهورها واندقاق أعناقهم وانتقالهم من ثم إلى جوار ربهم . أم ماذا ؟ ذلك أنه يرى أن بين « لتستووا على ظهوره (أى ظهور الحيوان) » و « منقلبون » طباقا (الآية ١٤ من « الزخرف » وهامش الآية التى تسبقها / ص ٥٢٨) . أما المترجمون الآخرون فقد أصابوا المرمى فقالوا : « (se) retourner » ، أى « إلى ربنا صائرون » . وهو يصرّح قائلا دون أدنى حرج إنه بفهمه هذا قد خالف المفسّرين الذين رجع إليهم . يريد أن يقول إنه أبصر فى النص القرآنى ما لم يستطيعوا هم إبصاره !

أما فى ترجمته لكلمة « مُتْرَفين » بـ « délicats » (الآية ٢٣ من نفس السورة/ ص٥٢٩)، وترجمته « (بِدُخانٍ) مُبين » إلى «singulière» (الآية ١٠ من «الدخان» / ص ٥٣٥) ، وترجمته لكلمة « الكريم » فى قوله جل جلاله للكافر المستكبر يوم القيامة : «ذُقْ ، إنك أنت العزيز الكريم» بـ « généreux » (الآية ٤٩ من

« الدخان » / ص ٥٣٨) ، وترجمته لـ « جاثية» بـ « assise sur ses talons » (الآية ٢٨ من « الجاثية » / ص ٥٤٢ . ومثلها عنوان السورة / ص ٥٣٩) فقد كان غير دقيق ، فـ « délicats » تعنى « الرقيق / اللطيف / الرهيف » ، على حين أن الترف (وبخاصة الذى يقصده القرآن ، وهو الترف الإجرامى الكافر) شىء مختلف تمام الاختلاف . كذلك فـ « singulière » معناها « فريد » ، وأية صلة يا ترى بين « الدخان المبين » و « الدخان الفريد » ؟ ثم إن « généreux » تعنى « المعْطاء » ، وهو ما لا تقصده الآية، إذ المراد هو السخرية ممن كانوا يعتزّون بأحسابهم فى الدنيا ويستنكفون أن يدخلوا فى زمرة المؤمنين احتقاراً لهم لكونهم من الفقراء والمستضعفين، وهذا (كما ترى) لا علاقة له بالكرم بمعنى السخاء . وإن كلمة « العزيز » لتؤكد هذا الذى نقول . ويبقى «الجثوّ» ، وهو القيام على أطراف الأصابع أو الجلوس على الرُّكَب ، لا الجلوس على الأعقاب كما تقول العبارة الفرنسية .

ومما أسقطه بيرك فى ترجمته أيضًا « واو العطف » فى قوله تعالى: « إن المصّدّقين والمصّدّقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ، ولهم أجر كريم » . وقد ترتب على هذا الإسقاط أن أصبح اسم « إن » ومعطوفه جملة تامة (مبتدأ وخبراً) كما هو واضح ، علاوة على اختصاره «المصَدّقين والمصَدّقات » فى جملة واحدة

هى « الذين يصدّقون آيات الله» (الآية ١٨ من سورة « الحديد » / ص ٥٩٥) . فانظر مقدار العبث فى عبارة صغيرة كهذه !

وعند ترجمته لقوله جلّ من قائل : «وجعلنا الليل لباسًا» يترجم « اللباس » بـ «vêture : الحفلة الخاصة بلبس ثياب الرهبنة» (الآية ٨ من « النبإ » / ص ٦٥٦) . إن هذا لأمر لا يصدقه العقل ! ثم لا يكتفى بيرك بهذا بل يضيف فى الهامش أن فى العبارة القرآنية إيحاءات جنسية ! (٥٦) الحقيقة أن هذه فضيحة علمية بكل المقاييس !

هذا ، وقد جرى بيرك على ترجمة « الصافّات صفًا * ... » و« الذاريات ذَرْواً * ... » و « المرسلات عُرْفًا * ... » و « النازعات غَرْقا * ... » و « العاديات ضَبْحا * ... » على أن جموع الألف والتاء فيها مصادر لا صفات ، فجاء كلامه هكذا : «الصفّ صفا» ، «الذَرْو ذروا» ، وهو سخف ما بعده سخف ! أفتراه يظن أنه يفهم لسان العرب أحسن مما فهمه أبناؤه طوال هاتيك القرون ؟ إن أقل قدر من الذوق اللغوى كافٍ لتبيُّن الرقاعة والركاكة فى هذه الترجمة ! ولا

---

(٥٦) وهو نفس كلامه بشأن قوله سبحانه : « يُغْشِي الليل النهار يطلبه حثيثا » (هامش الآية ٣ من سورة « الرعد » / ص ٢٥٨) ، أى أنه يتصور كلا من الليل والنهار يجامع صاحبه . ترى ماذا يمكن أن نقوله فى مثل هذه العقلية الغريبة ؟

أزيد على ذلك . ومما زاد الطين بلة أنه يستشهد على هذا التأويل بكلام قاله بلاشير ، وإن لم يذكر لنا أين نستطيع العثور عليه . لقد رجعتُ إلى ترجمة بلاشير عند قوله تعالى : «والمرسلات عرفا » ، وهى الآية التى أشار فى هامشها بيرك إلى رصيفه الفرنسى ، فلم أجد شيئا . وكذلك حاولت أن أعثر على ذلك فى كتاب بلاشير « Grammaire de l'Arabe Classique » ، بيّد أنى لم أُوفَّق[(٥٧)] .

ومما يُؤْخَذ على ترجمة بيرك أيضاً التغييرات التى كثيرا ما يُحْدِثها فى تركيب الجملة القرآنية : فقد يؤخر ويقدم ، أو يحوّل المثبت إلى منفى ، أو يستبدل الاستفهام المنفى بالخبر المثبت ، أو يمزق أوصال الكلام ، أو يزيد كلاماً غير موجود فى الأصل كما فى الأمثلة التالية، وهى قليل من كثير :

« هُنَّ لباسٌ لكم » : ألسن لباسًا لكم ؟ (الآية ١٨٧ من سورة «البقرة» / ص ٥١) .

« واسجدى واركعى مع الراكعين » : واركعى واسجدى مع

---

(٥٧) مما لاحظتُه على بيرك أنه كثيرا ما يشير فى هوامشه إلى أن هذا المفسّر أو ذاك المفكر يقول بالرأى الفلانى ، دون أن يذكر الموضع الذى يمكن القارئ أن يجد فيه ذلك . وإشارته هنا إلى بلاشير هى إحدى هذه الملاحظات . وبالمناسبة فقد ترجم بلاشير نفسه هذه الأقسام القرآنية كما هى ولم يلجأ إلى هذا الأسلوب البهلوانى الذى استعمله بيرك !

الساجدين (الآية ٤٣ من « آل عمران » / ص ٧٥) .

« ولا يذكرون الله إلا قليلا » : ولا يذكرون اسم الله إلا قليلا (الآية ٤٢ من «النساء» / ص ١١٥) .

« وإنْ مِنْ أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به قبل موته » : ... إلا ليُدْعَيَنَّ إلى الإيمان به قبل موته (الآية ١٥٩ من نفس السورة / ص ١١٧) .

« فاستَبِقوا الخيرات . إلى الله مرجعكم جميعًا » : فاستبِقوا الخيرات إلى الله . هو مرجعكم جميعا (الآية ٤٨ من « المائدة » / ص ١٢٩) .

« إنك أنت علام الغيوب * ... * إن تعذّبهم فإنهم عِبَادك ...» : ألست علام الأسرار ؟ * ... * إن تعذّبهم أليسوا عبّادك ؟ (الآيتان ١١٦ ، ١١٨ من السورة نفسها / ص ١٣٩) .

« أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا ؟ » : ألم يفضل الله هؤلاء من بين ذَوِينا ؟ (الآية ٥٣ من « الأنعام » / ص ١٤٦) .

« وأنت خير الفاتحين » : ألستَ خير الفاتحين ؟ (الآية ٨٩ من نفس السورة / ص ١٧٣) .

« وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون » : وأخذنا الذين ظلموا . يا له من عذاب بئيس ! (٥٨) (الآية ١٦٥ من

---

(٥٨) سقطت في الترجمة عبارة « بما كانوا يفسقون » .

سورة «الأعراف»/ ص ١٨٣) .

« لولا أُنْزِل عليه آية من ربه » : لولا من ربه أُنْزِل عليه آية (الآية ٢٧ من «الرعد» / ص ٢٦١) .

« تلك آيات الكتاب » : تلك آياتٌ من الكتاب (الآية الأولى من سورة « الحِجْر » / ص ٢٧١) .

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » : هذا هو القرآن الذى يهدى للتى هى أقوم (الآية ٩ من « الإسراء » / ص ٢٩٤) .

« ربكم أعلم بما فى نفوسكم . إنْ تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً » : ربكم يعلم باطنكم عندما تتظاهرون بالصلاح . أما بالنسبة للأوابين فهوْ غفور (الآية ٢٥ من نفس السورة / ص ٢٩٦) .

« إلا أن تأتيهم سُنَّة الأولين أو يأتيهم العذاب قُبُلا » : إلا أن تأتيهم سُنَّة الأولين قُبُلا أو يأتيهم العذاب (الآية ٥٥ من « الكهف »/ ص ٣١٣) .

« فقالوا (أى المرتدون الذين عبدوا العجل من بنى إسرائيل) : هذا إلهكم وإله موسى ، فَنَسِيَ * أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ؟» : فقالوا : هذا إلهكم . وإله موسى نسيه

السامرى[٥٩] (الآية ٨٨ من « طه » / ص ٣٣٥) .

« وأنا ربكم » : ألست ربكم ؟ (الآية ٩٢ من سورة «الأنبياء»/ ص ٤٨ ـ ٣٤٩ ، والآية ٥٢ من « المؤمنون » / ص ٣٦٦) .

« فإياى فاعبدون » : فاعبدونى (الآية ٥٦ من « العنكبوت » / ص ٤٢٩) .

« أجَعَل الآلهة إلها واحدا ؟ » : ألا يريد أن يجعل الآلهة إلها واحدا ؟ (الآية ٥ من سورة « ص » / ص ٤٨٦) .

« وما يستوى الأعمى والبصير * والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء » : وما يستوى الأعمى والبصير * ولا المسىء والذين عملوا الصالحات[٦٠] (الآية ٥٨ من « غافر » / ص ٥٠٩) .

« كم تركوا من جنات وعيون * ... ! » : كم من الجنات والعيون لم يتركوها[٦١] ! (الآية ٢٥ من « الدخان » / ص ٥٣٧) .

---

(٥٩) هذا عبثٌ جاهل ، وإلا فكيف فاته أنه لو كان الأمر كذلك لوجب نصب « إله » على المفعولية لـ « نَسِىَ » . وهذا إن سلمنا أنه يمكن أن نقول : «وإلهَ موسى فَنَسِىَ» بدلاً من « ونَسِىَ إلهَ موسى » مثلا .

(٦٠) فضلا عن إسقاط عبارة « الذين آمنوا » كما هو واضح .

(٦١) نفس التركيب تقريبا موجود عند كازيمرسكى ، وبعده علامة استفهام ، وعند إدوار مونتيه أيضًا ، ولكن بعده علامة تعجب .

« فإنما يسّرناه بلسانك لعلهم يتذكرّون » : لم نيسّره إلا بلسانك لكى يتذكروا (الآية ٥٨ من السورة السابقة / ص ٥٣٨) .

« فهل ينظرون إلا الساعة ... ؟ » : فهل ينظرون الساعة فحسب ...؟ (الآية ١٨ من « محمد » / ص ٥٥١) .

« إن يَسْأَلْكموها (أى إن يسألكم الله أموالكم) فَيُحْفِكم (أى يلحّ فى ذلك) تبخلوا ويُخْرِجْ أضغانكم » : إن يسألكموها يُحْفِكم ، وعندئذ تبخلون ويُخْرِج أضغانكم (الآية ٣٧ من نفس السورة / ٥٥٣) .

« كذلك قال ربك ! إنه (أى ربك) هو الحكيم العليم » : كذلك قال ربك : إن هذا الصبى[٦٢] سوف يكون الحكيم العليم » (الآية ٣٠ من « الذاريات » / ص٥٦٩) .

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلم درجات » : يرفع الله الذين آمنوا منكم درجات من العلم (الآية ١١ من « المجادلة » / ص ٦٥٠).

« من أى شىء خَلَقَه ؟ » : من أىٍ شىء لم يخلقه ؟ (الآية ١٨ من « عبس » / ص ٦٦٢) ... وهكذا ... وهكذا ، وهذه

---

(٦٢) يقصد الصبى الذى بشر الله به إبراهيم ، وهو إسحاق ، عليهما السلام .

مجرد عيّنة صغيرة لأنى لم أمخض الترجمة مخضا بل اكتفيت بنُغَبٍ منها قليلة .

على أن هذا ليس أسوأ ما فى الكتاب ، إذ هناك مواضع كثيرة تُزْعِج العادّين إن أرادوا لها إحصاءً ممتلئةٌ بأخطاء وتحريفات فاحشة فى ترجمة كلام الله لا أظن إلا أن وراء بعضها عمدا وسبق إصرار . وسنجتزئ كعادتنا بسَوْق بعض الشواهد عليها : من ذلك أننى ، فى المرات التى تنبهتُ فيها ، ألفيتُ بيرك يترجم دائما عبارة « يوم الدين » بـ «le Jour de l'allégeance : يوم الولاء أو المبايعة أو الطاعة والإخلاص » (الآية ٤ من « الفاتحة » / ص ٢٣ مثلا) . فأى مبايعة ستكون يوم القيامة ، الذى سيقتصر الأمر فيه على محاسبة العباد على ما قدمت أيديهم فى الدنيا ؟ وهذا هو معنى « الدين » هنا. أما استشهاده فى الهامش ببيت شعر للفِنْد الزِّمّانى (الشاعر الجاهلى) يقول فيه إنهم قد دانوا أعداءهم فى الحرب كما دانوهم[٦٣] ، وقوله إن المقصود بالدّين فيه هو الخضوع الذى يفرضه الإنسان على غيره أو يقاسيه منه ، فهو تفلسف غير مُجْدٍ لأنه يباعد بين الشاهد الشعرى والآية القرآنية حتى مع التفسير الذى خلعها عليه . كذلك فهل يمكن أن ننسى أن القرآن قد يعطى الألفاظ الجاهلية معانى

---

(٦٣) وهذا نصّ كلام الفِنْد : « دِنّاهم كما دانوا » .

أخرى غير التى كانت لها كما فعل مع « الصلاة » و « الزكاة » و« النفاق » و « الشريعة » وأمثالها من الكلمات الدينية ؟ وعلى هذا فليس من الحصافة فى شىء أن نأخذ كلمة « دين » فى القرآن فنفسرها كما كان الجاهليون يفهمونها مهملين ما أحدثه الإسلام وكتابه فى مثل هذا المجال . وقد ترجمها كازيمرسكى مثلا بـ « le jour de la rétribution » ، وبلاشير بـ « le Jour du Jugement » ومارددى بـ « le Jour de la Sentence » ، وكلها تدور حول معنى الحساب والجزاء .

كذلك هل يمكن ترجمة لفظ « سَوَّى » فى قوله تعالى عن نفسه : « ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سماوات » بـ « équilibrer le ciel en sept cieux » ، أى « وازنها أو عادلها فى سبع سماوات » ؟ إن التسوية هنا هى تشكيل السماوات السبع على أحسن وضع ، أما موازنة السماء فى سبع سماوات فلا أدرى كيف تكون .

وكما رأينا إصرار بيرك ، فى كل مرة تقريبا ، على ترجمة « يوم الدين » ترجمة خاطئة نجده يفعل الشىء ذاته مع مصطلح «الغيب» ، وهو مصطلح قرآنى لم يكن للعرب بمعناه الذى أضفاه عليه الإسلام عهد من قبل ، إذ « الإيمان بالغيب » فى

الإسلام هو الإيمان بالله والملائكة والجنة والنار ، أما « الغيب » فى الجاهلية فهو كل ما غاب عن الإنسان . ومع ذلك كله يفاجئنا بيرك بترجمة هذا اللفظ الإسلامى بـ « le Mystère » ، ومعناه السرّ الخفى ، وهو مصطلح نصرانى يُقْصَد به ما يجب على أتباع الكنيسة فى نظر رجالها أن يسلّموا به دون مناقشة أو تفكير ، ومنه سرّ الثالوث وسرّ المعمودية وسرّ تناول القربان وسِرّ الاعتراف (٦٤) . أى أنه ابتعد تمامًا عن اللفظ الجاهلى والاصطلاح الإسلامى جميعًا ونقَلَنا إلى ميدان آخر ، فما معنى هذا ؟ من هنا ندرك سرّ دمدمة د. زينب عبد العزيز عليه ، وهى دمدمة فى محلها . ولقد اقترحتْ عليه كلمة « l'Au - delà » بدل « le Mystère »(٦٥) إلا أن اللفظة المقترحة تعنى « الآخرة » فقط ، على حين أن « الغيب » أوسع من ذلك كما وضحنا .

كذلك فالترجمات الأخرى لم تستطع إلا أن تحوّم وتقارب

---

(٦٤) انظر فى ذلك مادة « Mystery » فى « Hook's Church Dictionary » / لندن / ١٨٨٧م ، وفى « The New Bible Dictionary » / طبعة Inter - Varsity Press / لندن / ١٩٧٢م ، ومادة « سِرّ » فى «قاموس الكتاب المقدس » ، وكذلك كتاب « أسرار الكنيسة السبعة» لحبيب جرجس/ جمعية المحبة القبطية الأرثوذكسية / ١٩٣٤م .

(٦٥) انظر كتابها « ترجمات القرآن إلى أين ؟ » / ٢٦ .

دون أن تصيب الهـدف إصابـة مباشـرة ، إذ تقـول مثـلا : «l'Inconnaissable» أو « l'Inconnu » أو « les vérités sub- limes» أو « le monde invisible » أو « l'invisible » . ولعل السبب فى ذلك أن « الغيب » بهذا التحديد الإسلامى غير معروف فى الأديان واللغات الأخرى ، ومن ثم يصعب العثور على كلمة واحدة تصيب المحزّ كما يقولون . ولكن هذه الترجمات ، رغم ذلك، تخلو من شُنْع ترجمة بيرك .

ومما أخطأ فى ترجمته بيرك خطأً فظيعًا « ألا الاستفتاحية » ، التى يفهمها فى معظم الأحيان على أنها « إلاّ الاستثنائية » (الآية ٢٣ من « البقرة » / ص ٢٧) (٦٦) أو على أنها تساوى «أليس ... ؟ / ألم ... ؟» (الآية ٦٢ من « الأنعام » / ص ١٤٧ ، والآية ١٣١ من «الأعراف»/ ص ١٧٧ ، والآية ٤٩ من « التوبة » / ص ٢٠٥ ، والآية ٥٥ من « يونس » / ص٢٢٣ ، والآية ٦٠ من «هود» / ص ٢٣٧ ، والآية ٢٨ من « الرعد » / ص ٢٦١ ، والآية ١٨ من « الشورى » / ص ٥٢٢ ، والآية ١٨ من « المجادلة »/

---

(٦٦) من الطريف أن د. زينب عبد العزيز قد خطّأت بيرك فى ترجمته لكلمة «السفهاء» فى هذه الآية ، ولم تتنبه مع ذلك لغلطته الخاصة بـ « ألا » (انظر كتابها السالف الذكر / ٣٠) .

ص ٦٠١ ... إلخ) . وبالمناسبة فقد وجدت عددا من المستشرقين ومعهم الشيخ بو بكر حمزة يترجمون هذا الحرف على أنه حرف استفهام ونفى (بمعنى « أليس ... ؟ / ألم ... ؟ ») ، ونبّهتُ إلى ذلك فى كتابى « المستشرقون والقرآن » .

ومن أخطائه كذلك ترجمته « إذ تُصْعِدون ولا تَلْوُون على أَحَد، والرسول يدعوكـم فى أخراكم » بـ « prendre du champs » ، أى « تتراجعون لتتملّوا المنظر جيدا » (الآية ١٥٣ من «آل عمران»/ ص ٨٧) ، مع أن « تُصْعِدون » معناها « تنطلقون فى طريقكم غير لاوين على شىء » . ويبدو أن السرّ وراء هذه الغلطة المضحكة هو أن هناك تعبيرا فرنسيا مقارباً لما قاله بيرك يؤدى معنى الفرار ، وهو المعنى المراد من « تُصْعِدون ولا تلْوُون على أحد »، ونصه: « prendre le clef du champs » بزيادة « le clef » .

أما خطؤه فى ترجمة قوله تعالى عن غزوة أُحُد مخاطبا المؤمنين : « وما أصابكم يوم التقـى الجمعـان فبإذن الله ولِيَعْلَمَ المؤمنيـن * وليعلم الذين نافقـوا ... » بما معناه : «ولْيَعْلَمِ المؤمنون ذلك » بتحويل « لام التعليل » والمضـارع المنصوب بعدها إلى «لام أمر» وفعل مجزوم بهـا ، وكـذلك تحويل « المؤمنين » (المفـعول به) إلى « المؤمنون » (فـاعلاً) ، فـمن الواضح أنه يدل على أن معـرفته بقـواعد العربية

ضعيفة (الآية ١٦٦ من « آل عمران» / ص ٨٩) . وقد رأينا أمثلة من قبل على ضعفه هذا فى صرف لغتنا ونحوها.

ومثل ذلك ترجمته قوله تعالى مخاطبًا المؤمنين والمؤمنات : « لا أُضيع عَمَلَ عاملٍ منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض » إلى ما مُفَاده : « لا أُضيع عمل عامل منكم ذكرا كان أو أنثى تجاه بعضكم البعض » مع تحذلقه فى الهامش شرحًا للسبب الذى دفعه إلى ترجمتها هكذا (الآية ١٩٥ من سورة « آل عمران » وهامشها / ص ٩٣) ، رغم أن عبارة «بعضكم من بعض» هى جملة مستأنفة ، ومعناها أن الرجال والنساء من طينة واحدة ، وجزاؤهم من ثم واحد . وقد فسرها المستشرق إدوار مونتيه فى هامش ترجمته لهذه الآية بأن المرأة خُلِقَتْ (كما جاء فى بعض الأحاديث) من ضلع الرجل ، وهو فهم غير بعيد مما قلتُه ، كما ترجمها كازيمرسكى بنفس المعنى .

وقد لاحظت د. زينب عبد العزيز أن المستشرق الفرنسى قد ترجم عبارة « يؤتون الزكاة » خطأً بما معناه : « يتطهرون » [(٦٧)]. وهو ، فى رأيى ، خطأ متعمَّد لأن بيرك يعرف معنى « الزكاة » جيدا كما هو واضح تماما من كلامه عنها فى هامش الآية ٥٨ من سورة «التوبة» (ص٢٠٦) . أتراه يريد طمس تلك الفريضة فى الإسلام ؟ إنه ،

---

(٦٧) انظر ص ٤٥ من كتابها السابق .

بهذه الطريقة ، يتجاهل المعنى الجديد الذى أعطاه الإسلامُ والقرآنُ للفظ «الزكاة» ويريد العودة به إلى معناه الأول ، وهذا عبث صراح واستخفاف بالنص القرآنى وبعقول القراء ! (٦٨). لو أن النص القرآنى قال : « يتزكّى » لكانت ترجمة بيرك سليمة ، أما « إيتاء الزكاة » فلا يمكن أن تعنى إلا إيتاء الفقير والمسكين وأشباههما حقهم فى أموال القادرين . والغريب أنه قد حدّد الزكاة فى الآية الرابعة من سورة « المؤمنون » بأنها التطهر المالى . وهذا التحديد ضرورى ، لأن التطهير واسع : فقد يكون بالماء ، وقد يكون بالتراب ، وقد يكون بعمل الخير ، وقد يكون بالاستغفار والتوبة ، وقد يكون بإيقاع الحدّ على مُسْتَوْجِبه ... إلخ.

وعند ترجمة كلمة «بروج (السماء)» نجد بيرك يعاملها معاملة « البروج » بمعنى « الحصون » (الآية ١٦ من سورة « الحِجْر » / ص ٢٧٢ ، والآية ٦١ من «الفرقان» / ص ٣٨٧ ، والآية الأولى من سورة « البروج » / ص ٧٦١) . وهو يعلل هذا السخف بأنه لما كانت آية سورة « الحِجْر » تتحدث عن تزيين السماء رأى أن من

---

(٦٨) انظر أمثلة لهذا الخطإ فى الآيات ٤٣ من « البقرة » (ص ٣١) ، و١٥٦ من «الأعراف» (ص ١٨١) ، و ١٦٢ من « النساء » (ص ١١٨)، و ١٨ من «التوبة» (ص ٢٠٠) .

الأوفق الاحتفاظ لكلمة « البروج » بقيمتها الاستعارية (هامش الآية المذكورة) . ترى هل فهم القارئ شيئا ؟ ولنفترض جدلاً أن ذلك صحيح ، فهل سيفهم القارئ الفرنسي هذا ؟ إن الفرنسية لا تعرف كلمة واحدة للمعنيين بل كلمتين ، فلا محلّ إذن للاحتفاظ للفظ « châteaux » بقيمته الاستعارية كما يقول . الحق أن هذا عبث واستخفاف !

أما فى ترجمته لقوله تعالى : « إنه لا يُفْلِح الكافرون » فلست أفهم ماذا يريد أن يقول . ولأضع النص أولا بين يدى القارئ : « Dieu ne comble pas les dénégateurs » (الآية ١١٧ من «المؤمنون» / ص ٣٧١) . وواضح أن «الكافرون» ، التى كانت فاعلا فى النص الأصلى ، قد تحولت إلى مفعول فى الترجمة مما يوحى بأن مستشرقنا الفرنسى يظن أن « يُفْلِح » فعل متعد وأن فاعله ضمير مقدّر عائد على « الهاء » فى « إنه » ، التى تعود بدورها حسب فهمه (فيما أتصور) إلى كلمة « ربّه » فى الجزء الأول من الآية ، ونصه : « ومن يَدْعُ مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه » . ولكن هنا مشكلة، وهى : كيف غفل بيرك عن أن «الكافرون» مرفوعة لا منصوبة ؟ ثم ماذا يعنى الفعل « combler » فى العبارة المترجمة ؟ إن معناه فى المعجم : « أَفْعَم ، سَدَّ ، رَدَمَ ،

غمر (بالإحسان أو بالهدايا مثلا) » ، فكيف يستقيم شيء من ذلك مع الفلاح الذى تذكره الآية ؟ أترى الترجمة قد سقطت من آخرها عبارة « de bienfaits » أو « de faveurs » ؟

ولاعتبار سخيف أيضاً نجد بيرك يترجم متعمدا اسم سورة « الروم » خطأ، إذ يسميها « Rome » ، أى روما . وفرق هائل بين قولنا : « الروم » (أى البيزنطيون) وقولنا : « روما » (المدينة الإيطالية المعروفة) . وهو عبث لم تَتَدَهْدَ إليه أية ترجمة من الترجمات الفرنسية العشر التى عندى ، إذ يقول بعضها : « les Grecs » وبعضها : « les Romains » ، وبعضها : « les Byzantins » ، وبعضها : « les Greco - Romains » . لو كانت روما عاصمة الدولة البيزنطية لكان فيما فعله مستشرقنا بعض الوجاهة ، إذ كثيرا ما نقول مثلا: «واشنطن» أو « القاهرة » ، وقصدنا الأمريكان أو الحكومة الأمريكية ، والمصريون أو حكومتهم على الترتيب . إنه يزعم أن الـ « euphonie » بين « الروم » و « Rome » هى التى دفعته إلى تنكب الترجمة الصحيحة ، وأن حديث السورة عن الأمم الكبيرة الماضية يعطيه الحق فى هذا العدول (هامش الآية ٢ من سورة «الروم»/ ص ٤٣١) . لكن الـ « euphonie » التى يتحدث عنها إنما تكون فى نفس الكلمة أو العبارة ، على حين أن « الروم » و « Rome » كلمتان مختلفتان ولا تنتميان إلى عبارة واحدة ، بل

لا توجد عبارة هنا أصلا ، علاوة على أن الـ « euphonie » هى رخامة الصوت وإطرابه ، وبالذات عن طريق تتابع حروف المد واللّين فى الكلمة أو العبارة الواحدة(٦٩) . وليس لهذا أية علاقة بالموضوع الذى نحن فيه كما هو بيّن حتى للأعمى ! أما حديث السورة عن الأمم الكبيرة الخالية فما صلته يا ترى بمدينة روما ؟ بالله أهذه طريقة لترجمة كتاب سماوى كالقرآن الكريم ؟

وكانت د. زينب عبد العزيز قد خطّأت بيرك فى هذه النقطة واقترحت كلمة « البيزنطيون » بدلا من « روما » (٧٠) ، فكان ردّه عليها هو السفسطة بعينها ، إذ تحدّاها قائلا إنه على استعداد لأن يدفع مائة دولار لمن يستطيع أن يجد الكلمة المقترحة فى أى نص عربى قديم (٧١) . سبحان الله ! أوليست كلمة « les Byzantins » هى المقابل الفرنسى لـ « الروم » عند العرب القدماء ؟ فما دخل

---

(٦٩) انظر مجدى وهبة وكامل المهندس / معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب / مادة « رخامة الصوت : euphony » / مكتبة لبنان / ١٩٨٤م/ ١٧٦ ، و J. A. Cuddon, A Dictionary of Literary Terms, Penguine Books , 1982 , art . " euphony ", PP. 248 - 249 .

(٧٠) انظر كتابها « ترجمات القرآن إلى أين ؟ » / ٢٢ .

(٧١) انظر أحمد الشيخ / من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب » / المركز العربى للدراسات الغربية / ١٩٩٩م / ٢٩ .

معرفتهم أو عدم معرفتهم بهذه الكلمة ؟ ثم إنه يمضى قائلاً إن البيزنطيين قد سمّوْا أنفسهم « رومانيين » . فلماذا لم يستخدم إذن كلمة « les Romains » إذا لم تكن تعجبه « les Byzantins » ؟ إن « روما » لم تكن عاصمة للروم بل كانت عاصمتهم « بيزنطة » . ولو سلمنا جدلا بأن بيزنطة هى ، كما يقول ، « روما الثانية » ، فكم قارئا يا ترى من قرائه يعرف ذلك ؟ وهل هذا مما يسوّغ الخلط الذى ارتكبه ؟ ومع ذلك كله فإن « روما الأولى » شىء ، و « روما الثانية » شىء آخر ! وهذا إن صحّ أن بيزنطة كانت تسمّى « روما الثانية » فعلا(٧٢) .

(٧٢) وقد لجأ بيرك إلى هذا الأسلوب السوفسطائى أيضاً فى رده على انتقاد د. زينب عبد العزيز إياه لعدوله المطّرد عن ترجمة كلمة « مسجد » فى القرآن الكريم بكلمة « mosquée » إلى « oratoire » (أو « oraison » أو « sanctuaire ») ، التى ترتبط بأماكن العبادة عند النصارى وغيرهم ولا علاقة لها بالمساجد ، إذ تظرّف قائلا إنه يعرف اللغة الفرنسية مثلما تعرفها وإنه استخدم فى ترجمة « المسجد » كلمة عظيمة الشرف هى « sanctuaire » ، أما هى فـ « مسكينة من القرية » لا تفهم أن « المسجد » شىء ، و «الجامع» شىء آخر (المرجع السابق / ٢٩ ـ ٣٠) . ووجه السفسطة هنا أنها تكلمه فى موضوع معيّن فيتركه هو ويتكلم فى موضوع آخر . وعلى أية حال فلم يحدث أن استخدم القرآن كلمة « جامع » قطّ ، وليس فيه إلا « المسجد » . أما التفرقة بين « المسجد » و « الجامع » فهى تفرقة فقهية لاحقة لا يعرفها القرآن (ولا الحديث النبوى فيما يغلب على =

وفي ترجمة « التناوش » فــي قوله جل جلاله عن الكفار يوم القيامة : « وقالوا : آمنا به (أى بالنبى) ، وأنّى لهم التناوش مــن مكان بعيد ؟ » (ومعناه : كيف يستطيعون أن ينالوا الإيمان بعد أن فارقوا الدنيا وحيل بينهم وبين قبول الله توبتهم ورجوعهم عن كِبْرهم وكفرهم ؟ إن الآخرة ليســت دار تكليف) نــراه يقول ما معنــاه : «كيف يَصِلون إلى الماء من هذا المكان البعيد؟» ، ثم يفسر صنيعه هذا فى الهامش قائلا إنه أراد أن يحتفظ بما يشير إليه الفعل « تناوش » من مدّ البعير عنقه إلى الحوض من حافَته العالية ليشرب (الآية ٤٦ من « سبإ » ، وهامش الآية ٥٢ من نفس السورة/ ص ٤٦٣) . وقد وقفتُ حائرا أمام هذه الترجمة العجيبة التى تتحدث عن الماء واستحالة الوصول إليه ، على حين تتحدث الآية عن الإيمان وعدم قبوله ، إلى أن فتحت تفسيــر القرطبــى بالمصادفة فوجدته يسوق فى شرح معنى «التناوش» هنا عدة أبيات منها بيت يتحــدث عــن ناقــة تمدّ عنقهــا نحو الحوض تبغى « نَوْش » الماء منه أى تناوله ، ففهمت السبب فى وقوع بيرك فيمــا وقع فيه من خطإ ، إذ ظن أن « التناوش » لا يكون

= ظنى) ، ولا علاقة لها (كما قلت) بنقد الأستاذة الدكتورة لبيرك ! ثم إن بيرك لم يستخــدم فــى ترجمــة « مسجد » كلمة « sanctuaire » وحدها كما يُفْهَم من ردّه بل استخدم ثلاث كلمات على الأقل كما وضّحت .

إلا للماء . وهذا هو البيت :

فهى تنوش الحوض نَوْشاً من عَلاَ   نَوْشاً به تقطع أجواز الفَلا(٧٣)

ولكن لم ترك بيركِ البيتين الآخرين وليس فيهما ذكر للماء ولا مدّ الناقة عنقها إليه من عَلُ ، وأَخَذَ هذا فقط رغم أنه يذكر « النَّوْش » بينما يذكر أحدُ البيتين الآخَرين « التناوش » ؟ عِلم ذلك عند ربى وربه!

وبالنسبة لقوله عزّ وجل : « كُلُّ مَنْ عليها فان » نجد بيرك يترجمها بـ « كلّ من تحملهم السُّفُن فانون » . يقصد السفن المذكورة قبل ذلك بآية فى قوله تعالى : « وله الجوَارِ المنشآت فى البحر كالأعلام » . وهو حين يفعل ذلك يفعله عن عمد بل عن عناد ، إذ يقول فى الهامش إن المفسرين بعامةٍ يشرحون الآية بأن كل ما على الأرض فانٍ ، إلا أن الضمير فى « عليها » يعود فى رأيه إلى السفن ، وهى بطبيعتها معرضةٍ للأخطار (الآية ٢٦ من سورة «الرحمن» وهامشها / ص ٥٨٤) ، مع أن شيئا من التفكير كان كفيلا بأن يجعله يكف عن عناده ، إذ من قال إن كل من يركبون السفن سيموتون عليها أو إنهم هم وحدهم الفانون ؟ إن الفناء هو مصير كل حىّ أينما كان ، وما قاله المفسّرون هو الصواب . ويؤكد هذا أيضًا أنه

(٧٣) انظر تفسير القرطبى / الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٧٨م / ١٤/ ٣١٦.

سبحانه وتعالى قد عقّب على ذلك باستثناء وجهه الكريم فقط قائلا : «ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» . أما عدم وجود اسم ظاهر فى الآيات يعود عليه الضمير فهو مثل قوله تعالى فى « الواقعة » (وهى تلى سورة «الرحمن» مباشرة ، فلن نذهب إذن بعيدا) : « فلولا إذا بَلَغَتِ الحُلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون * فلولا إن كنتم غير مدينين * تَرْجِعونها إن كنتم صادقين * فأما إن كان من المقرّبين * فَرَوْحٌ وريّحان وجنة نعيم * وأما إن كان من أصحاب اليمين * ... » (٧٤) . فعندنا هنا ضميران (هما الضمير المقدّر فى « بَلَغَتْ » ، والآخر الموجود فى « إليه ») ، ولم يتقدمهما فى النص ما يعودان عليه ، ولكنهما مفهومان من السياق: فالضمير الأول هو الروح ، والثانى هو الميّت فى طور الحشرجة. فهذا مِثْل هذا . وفى القرآن عبارة مشابهة لقوله جل شأنه : « كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » ، وهى قوله تعالى : «كل شىء هالكٌ إلا وجهه» (٧٥) ، والهلاك فيها شاملٌ كلَّ شىء أيضاً ، اللهم إلا الذات العلية .

ويصل استهتار بيرك بالنص القرآنى وبالأمانة العلمية حدا هائلا

---

(٧٤) الآيات ٨٣ ـ ٩٤ من سورة « الواقعة » .

(٧٥) القَصَص / ٨٨ .

حين يترجم قوله تعالى : « ومريمَ ابنةَ عمران التى أحصَنَتْ فَرْجَها » فيقول : « ومريم ابنة يواقيم ... » ، ثم يضيف فى الهامش قائلا إنه من غير المستبعد أن يكون ذِكْرُ ابنة عمران هنا إشارة تصالحية إلى مريم القبطية (٧٦) . وردُّنا على ذلك هو أنه (فى حدود معرفتنا) لم يحدث أن سُمِّيَتْ مارية القبطية فى أى مصدر أو مرجع إسلامى بـ «مريم» . ثم إن مريم أم المسيح مختلفة تماما عن مارية القبطية فى كل شىء : فتلك أم نبى ، وهذه لا . وتلك إسرائيلية، وهذه مصرية. وتلك ولدت طفلها ولادة إعجازية ، وهذه وضعت وليدها وضعا طبيعيا . وتلك عاش ابنها وكبر وأصبح نبيا وألهه كثير من أتباعه ، وهذه مات ابنها وهو طفل صغير . وتلك كانت تعيش فى فلسطين ، وهذه فى مصر ثم بلاد العرب ... إلخ . والاسمان ، كما قلنا ، مختلفان عندنا . ثم هل يمكن أن يفكر النبى عليه الصلاة والسلام فى مساواة مارية بمريم على أى نحو من الأنحاء ، والله قد طهر أم عيسى واصطفاها على نساء العالمين كما جاء فى الآية الثانية والأربعين من سورة «آل عمران» ؟ إن المستشرق الفرنسى يشير إلى ما تقوله بعض الروايات من أن الرسول كان قد حرّم على نفسه مارية

---

(٧٦) يسمى مارية القبطية : « Mary » ، وهى نفس الكلمة التى تُستَخْدَم لمريم ابنة عمران .

القبطية إرضاءً لعائشة ، التى رأت فى استمتاعه صلى الله عليه وسلم بمارية في يومها هى (على ما تقول هذه الرواية) إهانةً لها ، فنزلت السورة تُحِلُّه من يمينه . فبيرك إذن يرى أن السورة قد أتت لتطييب خاطر مارية . ما كل هذا الخبط والاضطراب؟ وما دخل مريم أم المسيح بما تسببت فيه عائشة إذا صحت الرواية ؟

على أنى أريد أن أناقش تغيير المترجم اسم « مريم ابنة عمران » إلى « مريم ابنة يواقيم » . إن يواقيم هذا لم يأت له أى ذكر فى الأناجيل البتة ، وكل ما هنالك أن اسمه قد ورد فى بعض روايات لا تحظى بالثقة عند النصارى (٧٧) ، ومن ثمَّ فصنيع بيرك هو إساءة متعمدة ، إذ يريد أن يقول كغيره من المستشرقين إن القرآن قد أخطأ فى اسم أبى مريم وخلط بينها وبين مريم ابنة عمران أخت موسى وهارون (٧٨) . إن الكتاب المقدس نفسه لا يصلح معياراً على القرآن الكريم، وبخاصة فى مسألة الأنساب . ويكفى أن نشير هنا إلى أن فى

(٧٧) انظر مثلا Elizabrth Gidley Withy Combe, The Oxford Dictionary of English Christian Names, Oxford, 1948, art. "Joachim" , P. 78 .

(٧٨) انظرمثلا فى اتهام المستشرقين للقرآن والرسول فى هذه المسألة Thomas Patrick Hughes, Dictionary of Islam, Oriental Books Reprinted Corporation , New Delhi, 1976, art. "Mary the Virgin", P. 328 .

سلسلتَىْ نسب المسيح الواردتين فى الأصحاح الأول من إنجيل متى والأصحاح الثالث من إنجيل لوقا اختلافات وتناقضات فاضحة ، فضلاً عن أنهم ينسبونه عليه السلام إلى داود من جهة يوسف النجار، رغم أن يوسف ليس أباه . فما بالنا إذا كان الذى يسمّى والد مريم «يواقيم» هو مجرد روايات لا يطمئن إليها القوم أنفسهم ؟ ثم فلنفترض أنه كان يُدْعَى «يواقيم» ، أفلا يمكن أن يكون هذا لقبه ، على حين كان اسمه الأصلى هو « عمران » أو ما تعريبه كذلك ؟ من هنا نرى أن ما أقدم عليه بيرك هو دليل على الجرأة المستهترة ! لقد كانت الموضوعية والأمانة العلمية التى يصدّعنا أهل الاستشراق بها توجب عليه أن يحافظ على النص القرآنى كما هو حتى لو كان يؤمن حقا (ولا أظن) أن القرآن قد أخطأ ، وعنده مندوحة فى الهامش يستطيع أن يقول فيها ما يحلو له . أما هذا الذى فعله فلا هو من الأمانة ولا من العلم ولا من الموضوعية (٧٩) .

هذه عينة من الأخطاء التى سقط فيها بيرك ، وهى عينة

---

(٧٩) ورغم أن هذه ليست أول مرة يسمى فيها القرآن الكريم والد مريم بـ «عمران » ، إذ سبق ذكر هذا الاسم فى الآية ٣٥ من سورة « آل عمران » ، فإن بيرك لم يعترض على ذلك إلا الآن ، مكتفيا هناك بالقول بأن «عمران» هذا يناظر « يواقيم » فى المصادر النصرانية (انظر هامش الآية المذكورة / ص٧٤) .

محدودة جدا جدا ، فإنى لم أقرأ الترجمة كلها بل كان عملى أقرب إلى التصفح السريع فكنت ألتقط آية من هنا أو آيتين أو أكثر من هناك ... وهكذا . ولقد ذكر د. محمود العزب ، وهو من المدافعين عن بيرك والمعجبين بترجمته إعجابا عظيما كما شاهدنا ، أنه كتب ملاحظات بأخطاء هذه الترجمة استغرقت أربعين صفحة . والذى أفهمه أن الصفحات الأربعين استغرقها مجرد رصد تلك الأخطاء دون المناقشة الموسعة كما فعلتُ أنا . وأغلب الظن أن الأخطاء أكبر من ذلك كثيرا . وقد كنا نودّ لو أنه نشر هذه الملاحظات فى مقاله الذى نحن بصدده [٨٠] ، ولكنه للأسف الشديد لم يفعل . وبهذا بقيت دعاوى المدافعين عن الترجمة والمشيدين بصاحبها مجرد تمجيد وتهليل (وإن ذكروا فى ذات الوقت أن عمل بيرك لا يخلو من أخطاء) ، أما الفريق المعارض للترجمة والدراسة الملحقة بها فقد درسهما وضرب منهما الأمثلة على ما يقول فجاء كلامه موثقا ذا حيثيات [٨١] .

(٨٠) وهو منشور فى العدد التاسع من سنة ١٩٩٥م من مجلة « إبداع » كما سبق القول .

(٨١) تقتضى الأمانة أن أذكر أن هناك أشياء أخذتها د. زينب عبد العزيز على بيرك ربما لا يوافقها غيرها عليها ، مثل تعليقها على ترجمته « ذلك الكتاب، لا ريب فيه ، هدًى للمتقين » على النحو التالى : « Voilà l'écrit que nul doute n'entache, en guidance à ceux qui veulent se prémunir» بقولها : « وترجمته تعنى : « ها هو الكتاب الذى =

على أنى أوافق د. العزب على ما ذكره من أنه لا ولن توجد

= لا يشوبه (أو لا يلوثه) شىء ، كإرشاد للذين يبغون أن يتزودوا » بغض النظر عن عدم دقة الترجمة ، فهو استبعد اليقين الذى فى صدق هذا الكتاب ، إذ إن الشائبة (أو التلوث) يمكن أن يكون نتيجة لأى شىء ، و « الذين يبغون التزود » لا تعنى « المتقين » ... إلخ » (ص ٢٥ ـ ٢٦ من كتابها المذكور) . وواقع الأمر أن بيرك لم يستبعد اليقين ، فهو لم يقل إن القرآن «لا يشوبه أى شىء » بل قال: « لا يشوبه أى شك : mul doute» ، كما أن فعل « se prémunir » معناه « يحتمى / يقى نفسه » ، أما «التزود» فهو « se munir » . وبطبيعة الحال فالأستاذة الدكتورة أعرف من ذلك باللغة الفرنسية وأبصر بدقائقها كثيرا، لكن يبدو أن شدة تحمسها قد أدت إلى وقوعها فى هذا السهو . ومثل ذلك انتقادها لبيرك على قوله فى الهامش المخصص لآية « ومن الناس من يقول : آمنّا بالله وباليوم الآخر ، وما هم بمؤمنين »: « هنا يبدأ ذلك العَرْض السيكولوچى الممتدّ والذى انحصر فى الفترة المكية فى فئة واحدة من المعارضين هم الوثنيون» ، إذ عقّبت قائلة : «ومن الواضح أن تعبير الآية : « وما هم بمؤمنين» يشمل كافة الفئات العقائدية ، إلا أن كتابته (أى بيرك) لهذا الهامش الذى يحصر عدم الإيمان فى الوثنيين فحسب لا معنى له إلا محاولته نزع صفة عدم الإيمان عن المسيحيين واليهود وقَصْرها على الوثنيين، وهو ما يتعارض مع الآية ويكشف عن نيته المغرضة فى الترجمة » (ص ٢٨ من كتابها السالف). والذى حدث هو أن الدكتورة زينب لم تلتفت إلى بقية الهامش ، ونصها : « أما فى الفترة المدنية فقد اتسع ذلك المعرض ليشمل عدة فئات لا يمثل المنافقون إلا أشدّها إغراقا فى الإثم والفسوق » (هامش الآية ٨ من سورة «البقرة»/ ص ٢٧ من الترجمة) .

«ترجمة مطابقة تماما للنص القرآنى ، وإنما تتفاوت الترجمات بعدا أو قربا من النص الكريم »[٨٢]. ذلك أن الترجمة جهد بشرى ، وكلّ جهد بشرى مقضىّ عليه بالنقص مهما كانت عبقرية صاحبه وإخلاصه ودأبه ، كما أن الأنظار والأذواق والعقول تختلف . ونحن هنا لا ندين بيرك وترجمته لمجرد أن فيها أغلاطًا بل لأن هذه الأغلاط كثيرة جدًا جدًا ومزعجة ، وكثير منها فادح ومتعمَّد ، فهى إذن ليست رائعة عبقرية كما يدَّعى مادحوها ولا تتفوق على ما سبقها من ترجمات ، بل إن بعض تلك الترجمات أفضل من عمل بيرك سواء فى سلاسة الأسلوب والبعد عن الحذلقة والعثكلة والإغراب أو فى فهم النصّ وإحسان اختيار اللفظ والعبارة اللذين يعبِّران أقرب ما يكون عن معناه .

وفضلا عن ذلك فهناك تلك الهوامش التى شغلت حيزا كبيرا من الكتاب . ودائمًا ما تبدأ هوامش كل سورة بهامش يخصصه بيرك لعنوانها دون ترقيم ، على عكس سائر الهوامش التى يرقم كُلا منها برقم الآية التابع لها . وفى ذلك الهامش يذكر اسم السورة أو أسماءها إذا كان لها أكثر من اسم ، وتاريخ نزولها وملابسات هذا النزول

---

(٨٢) انظر مقاله « چاك بيرك وترجمة القرآن الكريم » / مجلة « إبداع » / العدد التاسع / سبتمبر ١٩٩٥م / ١٣ .

وترتيبها والاختلافات الموجودة فى هذا بين علماء القرآن والمستشرقين، وكذلك الموضوعات التى تتضمنها السورة وما تتميز به عن غيرها من السّور ... وهكذا . أما هوامش الآيات فقد يسوق فيها ما للفظة أو الآية من معنى أو معانٍ أخرى لم يأخذ بها فى ترجمته، شافعا هذا أحيانًا بالسبب الذى حمله على ذلك . وقد يتحدث فيها عن مصاعب الترجمة والحيلة التى لجأ إليها لمواجهة هذه المصاعب، أو السرّ الذى جعله يفضل لفظا أو تعبيرا معينا على غيره أو دفعه لمخالفة غيره من المترجمين وربما المفسرين أيضًا . وقد يناقش فى تلك الهوامش بعض المسائل اللغوية أو البلاغية أو الدينية، وقد يعقد فيها المقارنات بين القرآن الكريم والكتاب المقدس أو بين مبادئه وأفكار بعض الفلاسفة الأوربيين، وقد يشيد فيها بالقرآن وما فيه من قيم كريمة، وقد يلمزه لمزا صريحًا أو لحنا فى القول ... إلخ .

وفى هذه الهوامش نرى بيرك فى كثير من الحالات حريصًا على الإشارة إلى ما تمثله الآية أو الآيات التى تقع فى منتصف السورة من أهمية بوصفها المركز العددى لتلك السورة . لنأخذ مثلًا الآية ١٤٣ من سورة « البقرة » التى تعلن تحوُّل القبلة من بيت المقدس إلى مكة، إذ يقول إنها، باحتلالها منتصف السورة، تمثل موقعا إستراتيجيا يتناسب مع تحول مكة آنئذ إلى مركز للعالم (٨٣) . وما فعله

(٨٣) هامش الآية ١٤٣ من سورة « البقرة » / ص ٩٥ . وبالمناسبة فعدد آيات هذه السورة هو ٢٨٦ .

مع هذه الآية فعله أيضًا مع الآية المائة من « آل عمران » التى تحذّر المسلمين من أهل الكتاب ، والتى تقع فى ذات الوقت فى منتصف السورة التى يبلغ عدد آياتها مائتين [٨٤] . ومثل ذلك تحديده للآيات ٨٢ ـ ٨٧ من « الأنعام » كممثّل للمركز العددى لهذه السورة[٨٥] ، حيث يلاحِظ أن الآيات عَقِبَها تأخذ منعطفا جديدا ، إذ تصبح الأوامر مباشرة وملحّة بعد أن كان القسم الأول من السورة عبارة عن تذكير عام [٨٦] . ومن هذا القبيل أيضًا أن الآيات ٢٤ ـ ٢٦ من سورة « إبراهيم » التى يُضْرَب فيها مَثَل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة تحتل منتصف تلك السورة التى يبلغ عدد آياتها اثنتين وخمسين[٨٧] . أما سورة « النحل » فتمثل هذه المركزيةَ العدديةَ فيها الآيةُ التالية التى تحدد مهمة النبى عليه السلام : « وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبيّن لهم الذى اختلفوا فيه وهُدًى ورحمةً لقوم يؤمنون » ، وهى الآية الرابعة والستون من آيات السورة التى تبلغ ١٢٨ آية[٨٨] ...

---

(٨٤) انظر هامش عنوان السورة / ص ٦٩ .

(٨٥) انظر هامش عنوان السورة / ص ١٤٠ .

(٨٦) انظر هامش الآية ٨٨ من السورة / ص ١٥١ .

(٨٧) انظر هامش عنوان السورة / ص ٢٦٤ .

(٨٨) انظر هامش عنوان السورة / ص ٢٧٨ .

وهلم جرا. أما بالنسبة لسورة « الكهف » فإن الأمر يختلف بعض الشيء ، إذ يقول بيرك إن هذه السورة تتمتع بغنًى روحى وفكرى وأدبى مركّز ، ومن ثم فليس من المصادفة أن تجىء فى منتصف القرآن حيث تمثّل الآية الثانية عشرة منها مركزه العدى ، فعدد الحروف (أو الصوتيمات) قبلها يساوى تماما عدد الحروف بعدها[٨٩] .

هذه بعض نماذج مما قاله بيرك عن المركزية العددية فى سورة القرآن أكتفى بوضعها بين أيدى الباحثين ليروا رأيهم فيها . والمسألة ، فى نظرى ، تحتاج إلى مزيد من الدراسة والتعمق . ومن يدرى ؟ ربما استطعنا الوصول إلى أسرار مهمة من كنوز القرآن الخفية الكثيرة .

- ويرتبط بهذا ما وجدتُ بيرك يهتم به فى كثير من الأحيان أيضاً من الحرص على لفت الأنظار إلى ما يسُود هذه السورة أو تلك من إيقاع عَشْرِىّ . ومعناه أن السورة يمكن تقسيمها كلها أو بعضها إلى عدة مجموعات من الآيات عدد كل منها عَشْرٌ (أو قريب من عشر) أو مضاعفُها ، وتتناول كلٌّ مجموعة منها موضوعًا أو فكرة معينة ... وهكذا . وهى أيضًا من النقاط التى يلزمها مزيد من البحث

---

(٨٩) انظر هامش عنوان السورة / ص ٣٠٦ .

والتدقيق[٩٠] .

وقد تكرر ثناء بيرك فى هوامشه هذه على الإسلام : فقد وصفه مرة بأنه دين العقل والحرية انطلاقا من قوله تعالى : « لا إكراه فى الدين » ، الذى يرى أن مجيئه بعد آية الكرسى الشديدة الأهمية يبرز المبدأ الذى يرسيه إبرازا[٩١] . ومثل ذلك إشارته إلى المكانة العظيمة التى يحتلها الإنفاق فى سبيل الله داخل منظومته ، وإعجابه بما تحتوى عليه آية الحبة التى تنبت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة من لمحات غنائية طبيعية[٩٢] . كذلك يرى أن قوله تعالى : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتابَ والحُكْمَ والنبوة ثم يقولَ للناس : كونوا عباداً لى من دون الله ، ولكن : كونوا ربّانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تَدْرُسون » من شأنه أن يهدم السلطة الكهنوتية لرجال الدين[٩٣] . كما تكرر تأكيده أن الإسلام ، على عكس اليهودية ، لا

(٩٠) مثال ذلك ما جاء فى هامش العنوان من سورة « آل عمران » (ص ٦٩) عن الإيقاع العشرى فى تلك السورة ، وفى هامش عنوان «الصافات» (ص ٤٧٨) عن إيقاعها العشرى ، وكذلك فى هامش عنوان « الجاثية » (ص ٣٥٩) عن نفس الإيقاع فيها .

(٩١) انظر هامش الآية ٢٥٦ من سورة « البقرة » / ص ٦٣ .

(٩٢) انظر هامش الآية ٢٦١ من نفس السورة / ص ٦٤ .

(٩٣) هامش الآية ٧٩ من « آل عمران » / ص ٧٩ .

يهتم كثيراً بالطقوس الشكلية بقدر ما يهتم بالروح الخلقية[٩٤] .

ومن هذا أيضًا تأكيده أن إلحاح القرآن على العلم هو من الوضوح بمكان [٩٥] ، وأن قوله تعالى : « ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبَقُوا الصراط ، فأنَّى يبصرون ؟ * ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مُضِيًا ولا يرجعون » معناه أن الله وهب بنى آدم القدرة على الإبصار والحركة ، وهما أساس الحرية ، ومن ثم كانت المسؤولية فى الإسلام [٩٦] . وعند ترجمته لقوله عز شأنه : « قل : يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعا . إنه هو الغفور الرحيم » لا يفوته أن يعلق على ذلك فى الهامش قائلا : « فلْنلاحظ هذه الدعوة إلى التوبة وإلى عدم فقدان الأمل عند المذنبين » [٩٧] . كما لا يفوته أن يُبرِز ما فى قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تَبَرُّوهم وتُقْسِطوا إليهم . إن الله يحب

---

(٩٤) انظر على سبيل المثال هامش الآية ١١٨ من سورة « الأنعام » / ص ١٥٥ ، وهامش الآية ١٣٧ منها أيضًا / ص ١٥٨ ، وهامش الآية ٢٩ من «الأعراف» / ص ١٦٥ ، وهامش الآية.١٩ من « التوبة » / ص ٢٠٠ .

(٩٥) انظر هامش الآية ٦ من « سبإ » / ص ٤٥٧ .

(٩٦) انظر هامش الآيتين ٦٦ ـ ٦٧ من « يس » / ص ٤٧٥ .

(٩٧) هامش الآية ٥٣ من « الزُمَر » / ص ٥٠٠ .

المُقْسطين » من كرم خلقى رفيع وتسامح دينى لا يُجَارَى [٩٨] . ثم إنه يشيد إشادة كبيرة بما يسميه « الغنائية الرائعة » في سورة «المدَّثِّر» [٩٩] و«عاصفة الصُّور وكثافة اللغة» فى سورة «المرسلات» [١٠٠] .

وكل هذا جميل ، ولكنْ من الناحية الأخرى نحب أن نتمهل قليلا أمام ما يقوله المستشرق الفرنسى تعليقا على قوله تعالى : «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصائبين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون » ، إذ وصف هذه الآية بأنها آية عالمية ، ثم أحال إلى الآيات ١١٣ ـ ١١٥ من « آل عمران » [١٠١] ، وهى الآيات التى تقول : « ليسوا سواء . من أهل الكتاب أمةٌ قائمةٌ يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينْهَوْن عن المنكر . وأولئك من الصالحين * وما يفعلوا من خير فلن يُكْفَروه، والله عليم بالمتقين » . وواضح أنه يريد القول بأن الإسلام

---

(٩٨) انظر هامش الآية ٧ من سورة « الممتحنة » / ص ٦٠٨ .

(٩٩) انظر هامش عنوان السورة / ص ٦٤٥ .

(١٠٠) انظر هامش عنوان تلك السورة / ص ٦٥٣ .

(١٠١) انظر هامش الآية ٦٢ من سورة « البقرة » / ص ٣٤ .

يعترف للصالحين من أهل الكتاب بالنجاة وحسن العاقبة يوم القيامة . لكنه يضيف قائلا إن هذا الموقف القرآنى منهم ليس هو الموقف النهائى[١٠٢] . يقصد أن القرآن قد عاد فدعا إلى حربهم وأكّد أن «من يبتغ غير الإسلام دينا فلن يُقْبَل منه» . وهذه شِنْشِنَةٌ استشراقية وجدتُها عند كثير منهم ، وبخاصة الذين يترجمون القرآن. وقد سبق أن رددتُ على هذا الفهم الخاطئ فى عدد من كتبى ، وهأنذا أعيد هنا ما قلتُه من قبل مع الاختصار : إن الملاحظ أن النصين السابقين يشترطان لنجاة أهل الكتاب ، إلى جانب العمل الصالح ، الإيمانَ بالله واليوم الآخر . وقد بين القرآن الكريم فى أكثر من موضع أن هذا الشرط لا يتحقق إلا بالإيمان بجميع الرسل والكتب السماوية، وهو ما يعنى أنه (بعد مجىء محمد عليه السلام) لا بد من الدخول فى الإسلام . قال تعالى : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ويقولون : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا »[١٠٣] ، وقال جل من قائل عن القرآن : «وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدِّقُ الذى بين يديه ولِتُنْذِرَ أُمَّ القرى ومن

---

(١٠٢) الموضع السابق .

(١٠٣) النساء / ١٥٠ ـ ١٥١ .

حولها . والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم يحافظون »(١٠٤) ، وقال عز شأنه : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم اللهُ ورسولُه ولا يَدينون دِينَ الحق من الذين أوتوا الكتابَ حتى يُعْطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »(١٠٥) ، وقال سبحانه : « الذين يتّبعون الرسولَ النبيَّ الأميَّ الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذى أُنْزِل معه أولئك هم المفلحون»(١٠٦) . فهذه آيات مكية ومدنية نزلت فى أوقات وظروف مختلفة تقول بكل وضوح وصراحة إنه بعد بعثة النبى محمد صلى الله عليه وسلم لا نجاة لإنسان (ما دام قد وصلته دعوته عليه السلام وفهمها على وجهها الصحيح بطبيعة الحال) إلا بالدخول فى دينه والإيمان به وبكتابه . قال القرآن هذا فى مكة ، وقاله فى المدينة ، أى أنه موقف له ثابت لا يتغير . أما الذين يقرأون الآيات القرآنية بالطريقة التى تعجبهم ويفهمونها على

---

(١٠٤) الأنعام / ٩٢ .

(١٠٥) التوبة / ٣٠ .

(١٠٦) الأعراف / ١٥٧ .

غير أصولها فهؤلاء ليسوا حجة فى تفسير القرآن، ومن ثم لا يصح أن يثيروا مثل هذه الاعتراضات عليه .

على أنْ ليس معنى هذا أن الإسلام يضيق ذرعًا بوجود من لا يؤمنون به ويعمل على محوهم واستئصالهم كبعض الديانات الأخرى. كلا ثم كلا ، فالقرآن يرشدنا إلى أن الحياة قائمة على الاختلاف حتى فى العقائد والنِّحَل ، وينهانا عن أن نتعرض لأحد ما لم يقاتلنا ويَعْتَدِ علينا . ونحن مع بيرك فى أن إحالة القرآن للخلاف بين الإسلام وغيره من الأديان إلى الله سبحانه للفصل فيها يوم القيامة فى قوله تعالى : « إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون»(١٠٧) هو دليل رائع على التسامح (١٠٨). وأضيف أنا أن هذا هو منتهى العقلانية وقمة المنطق ، إذ ما الذى ينبغى أن يفعله الواحد منا إذا ما دخل مع إنسان آخر فى جدال وبيّن له بكل ألوان الحجج أنه على الباطل ودعاه إلى أن ينضم إليه فيما معه من الحق

(١٠٧) المائدة / ٤٨ .

(١٠٨) انظر هامش الآية ٤٨ من « المائدة » / ص ١٢٩ . وانظر كذلك هامش الآية ١٧ من « الحج » / ص ٣٥٣ حيث يقول بيرك نفس الكلام. ونص هذه الآية هو : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة . إن الله على كل شىء شهيد » .

فأبى ولجّ فى موقفه وعناده ؟ إنه إما أن يشتبك معه ويقاتله لإكراهه على الانضمام إليه وإما أن يفوّض الأمر برمّته إلى الله يفصل فيه يوم القيامة من منطلق احترام وجهة النظر المخالفة . وقد اختار الإسلام الحل الأخير لأنه هو الحل الحكيم . إن الإسلام يرى أن أهل الكتاب قد كفروا بسبب من تحريف كتبهم وكفرهم بمحمد عليه السلام وتطاول اليهود منهم على الذات العلية وتأليه النصارى لنبيهم وخروجهم على شريعة الله ، ولكنه فى ذات الوقت يتركهم لضمائرهم بعد أن بصّرهم بانحرافاتهم وأخطائهم وخطاياهم . والقرآن واضح فى هذا الموضوع وضوحًا لا تشوبه ذرة من اللبس . أما تفسير قوله تعالى عن القرآن إنه أنزله « مصدّقا لما بين يديه » بأن المقصود (كما يدّعى بيرك) أنه جاء مصدّقا لما هو شائع أو متداول من الأديان والكتب[١٠٩] فهو تفسير خاطئ تماما . وصواب الأمر هو أنه قد جاء مصدّقا للكتب التى أنزلها الله على رسله السابقين ، أى فى حالتها النقية السليمة قبل وقوع العبث بها . وهذا من الوضوح بحيث

---

(١٠٩) انظر ترجمته للآيات ٣ من سورة « آل عمران » (ص ٦٩) ، و ٤٨ من «المائدة» (ص ١٢٨) ، و ٩٢ من « الأنعام » (ص ١٥١) ، و٣٠ من «الأحقاف» (ص ٥٤٨) . وقد جاءت ترجمته غامضة فى الموضعين الأول والثالث ، إذ تقول إن القرآن قد نزل مصدقا لما هو متداول أو شائع . أما أى شىء ذلك المتداول الشائع ، فلا يقول بيرك شيئا .

لا يحتاج إلى تبيان .

أما مقارنات بيرك بين القرآن الكريم والكتاب المقدس فسأقف منها عند النقطتين التاليتين : فأما الأولى فهى دعواه أن قوله عز وجل : « وهل أتاك نبأ الخَصْم إذ تسوّروا المحراب ؟ * إذ دخلوا على داود ففزع منهم . قالوا : لا تَخَفْ ! خصمان بَغَى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تُشْطِط ، واهدنا إلى سواء الصراط * إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، فقال : أَكْفِلْنيها وعزّنى فى الخطاب * قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ... » هو إشارة إلى ما ورد فى العهد القديم عن داود عليه السلام وحكايته مع أوريا الحِثّى (أحد قادته العسكريين المخلصين) وزوجته بتْشَبَع(١١٠) . وتتلخص هذه الحكاية الغريبة فى أن داود كان يتنزه ذات يوم على سطح قصره فأبصر تلك المرأة تستحم عاريةً فى فناء بيتها بجوار القصر فوقعت فى نفسه فأرسل من أحضرها له وزنى بها ثم رسم مؤامرة للتخلص من زوجها (وهو أحد قادته الكبار كما قلنا) بوضعه على خط النار قبالة الأعداء مع انفضاض جنده عنه كى يُقْتَل سريعًا ، وهو ما حدث ، وأن الله قد أرسل إليه شخصا يسأله الحكم فى رجلٍ غنىّ عنده كثير من البقر والغنم طمع فى نعجة رجل فقير

(١١٠) هامش الآية ٢٤ من سورة « ص » / ص ٤٨٨ .

لا يملك سواها وأخذها منه ، فحكم داود بأن يُقْتَل ذلك المغتصب ويردّ أربعة أضعاف النعجة إلى صاحبها ، فعندئذ نبهه الرجل إلى أنه هو المقصود بهذه القصة ... إلخ (١١١).

والحق أن القصة القرآنية تختلف عن حكاية العهد القديم اختلافا كبيرا، إذ لا تذكر شيئا مما قاله ملفّق الحكاية اليهودية فى العهد القديم عن طمع داود فى امرأة قائده وزناه بها وتآمره على قتل زوجها . كذلك ففى القرآن أن الخصمين أنفسهما هما اللذان تسوّرا المحراب على داود وبسطا أمامه قضيتهما ، أما العهد القديم فيقول إن ناثان هو الذى حكى القصة لداود ثم زاد على ذلك قائلا إنه هو المقصود بهذا المثل . ومما تختلف فيه القصتان أيضًا أن الغنىّ فى العهد القديم يمتلك بقرا وغنما كثيرا جدا ودون تحديد عددها، أما فى القرآن فله تسع وتسعون نعجة : هكذا تحديدا ، ومن النعاج فقط دون البقر. وفضلا عن ذلك فإن وقوع الزنا من أحد الأنبياء هو أمر لا يُتَصَوَّر فى الإسلام ، إذ الأنبياء مُثُلٌ عليا فى كرم الخلق والعفة والزهد فيما فى أيدى الآخرين ، ولا يمكن أن يفكروا أبدا فى التآمر على الأبرياء ، وإلا فما الفرق بينهم وبين أعتى عُتاة المجرمين فى هذه الحالة ؟ وعلى هذا فإنه إمّا أن يكون استغفار داود فى القصة القرآنية ، بعد تنبهه إلى

(١١١) صموئيل الثانى / ١١ ـ ١٢ .

أن الله قد فتنه ، راجعا إلى شعوره بأنه قد تسرّع فى الحكم لصاحب النعجة دون أن يستوثق من أنه صادق فيما رواه، وإما (وهو ما أستبعده) أنه قد تمنّى فيما بينه وبين نفسه أن تكون له زوجة قائده (إن صحّ أن لقصة العهد القديم أصلاً أخذه اليهود وضخّموه كعادتهم ونفخوا فيه محاولين تلطيخ سيره ذلك النبى الكريم) ، فأراد الله أن ينبّهه إلى وجوب وأده لهذه الرغبة فورا(١١٢) .

وأما النقطة الثانية فهى قول بيرك إن القرآن قد أخذ مبدأ المسؤولية الشخصية من العهد القديم على نحو غير مباشر وقرّأنه شيئا فشيئا . جاء ذلك فى تعليقه على قوله سبحانه فى سورة « النجم » : « ألاّ تَزِرَ وازرةٌ وِزْرَ أخرى»(١١٣) . ولن أطيل القول فى مناقشة هذه الدعوى ، بل كل ما سأفعله هو أن أسوق النصين التاليين من العهد القديم حيث يقول كاتب سِفْر « الخروج » على لسان الله عز وجل مخاطبا موسى : « أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضىّ»(١١٤) ، و«مفتقدٌ إثم الآباء فى

(١١٢) ومع ذلك فمن الغريب أن الشيخ بو بكر حمزة ، وهو المسلم ، قد قال فى حق القرآن وداود عليه السلام من قبْل ما قاله جاك بيرك . انظر ترجمته للقرآن إلى الفرنسية (Le Coran, Fayard - Denoël. Paris, 1972) فى الهامش الذى خصصه للآية ٢١ من سورة «ص» (ج٢ / ص ٩١٨) .

(١١٣) انظر هامش الآية ٣٨ من سورة « النجم » / ص ٥٧٧ .

(١١٤) خروج / ٢٠ / ٥ .

الأبناء وفى أبناء الأبناء فى الجيل الثالث والرابع»[١١٥]، وأن أذكّر بأن أساس النصرانية يقوم على القول بأن ذرية آدم كلها قد ورثت عنه الخطيئة الأصلية وأن المسيح عليه السلام قد صُلِب ليكفّر عنهم هذه الخطيئة . فأين هذا أو ذاك من المبدإ القرآنى العظيم فى المسؤولية الشخصية ؟

ومن اللمزات الخفية فى هذه الترجمة زَعْم بيرك أن بين الآيتين العشرين والحادية والعشرين من سورة « النجم » كلامًا محذوفا مهما[١١٦] . يشير إلى ما قيل فى بعض الروايات التافهة من أن الشيطان ألقى على لسان النبى محمد ، بعد أن فرغ من تلاوة الآية العشرين على الحاضرين من مسلمين ومشركين ، هاتين الجملتين اللتين تصفان اللات والعُزّى ومناة بقولهما : « إنهن الغرانيق العُلا * وإن شفاعتهن لتُرْتَجى » ، لكن النبى سرعان ما تنبّه وحذفهما بعد أن لفت جبريل نظره إلى ما حدث . وكان بيرك قد مسّ هذا الموضوع من قبل فى أحد هوامش سورة « الحجّ » بشىء من التفصيل وأشار إلى ما أثارته رواية سلمان رشدى « The Satanic Verses » من لغط عند صدورها فى أواخر الثمانينات ، كما لفت النظر إلى ما فعله

(١١٥) خروج / ٣٤ / ٧ .

(١١٦) انظر هامش العنوان فى سورة « النجم » / ص ٥٧٤ .

ريچى بلاشير بالنص القرآنى حين أضاف تينك الجملتين المزعومتين إلى سورة «النجم» مرقّما الأولى (٢٠ أ) والثانية (٢٠ب) . وفى رأيه أن هذه الحادثة تدل على ضعفٍ عارضٍ عند النبىّ (١١٧) . يريد أن يقول إن النبى قد أراد أن يستميل المشركين إلى الدخول فى دينه فلم يجد بأسًا فى أن يمدح آلهتهم بهاتين الكلمتين ، لكنه ما إن فعل هذا حتى ثار ضميره وحزن أشد الحزن فألغاهما .

وقد سبق أن عالجت هذه المسألة معالجة مستفيضة فى كتابىّ : «ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته ؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية» و «دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية ـ أضاليل وأباطيل» ، وبيّنت أن نسيج سورة « النجم » لا يقبل أبدًا دخول هاتين الجملتين فيه لأن تلك السورة تهاجم الكفار وآلهتهم هجوما عنيفا من أولها إلى آخرها ، فكيف يستوى مَدْحٌ وقَدْحٌ فى سورة واحدة ، وبخاصة إذا كانت سورة صغيرة مثلها ؟ بل كيف يمكن أن يقتنع كفار قريش أن محمدا قد مدح آلهتهم وهم يسمعون فى ذات الوقت دمدمات الغضب الإلهى عليهم فى هذه السورة ويكادون يغرقون فى سيوله الكاسحة ويختنقون تحتها ؟ إنهم لم يكونوا سذجًا إلى هذا الحد. ثم

(١١٧) انظر هامش الآية ٥٢ وما بعدها من سورة « الحج » / ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

إنى قد حلَّلت هاتين الجملتين تحليلا أسلوبيا فوجدتُ أنهما لا تمتان إلى أسلوب القرآن على أى نحو : من ذلك مثلاً أن عبارة «أفرأيتم ...؟» ، التى وردت فى القرآن إحدى وعشرين مرة ، لا تُسْتَعْمَل فيه إلا فى مواطن الخصومة مع الكفار ، فكيف تُسْتَعْمَل هنا فى موطن التمجيد لآلهتهم ؟ كذلك لم ترد فى القرآن فى أى موضع منه صيغة « افتعل » من مادة «الرجاء» ، فكيف نقبل بسهولة أن تنفرد هاتان الجملتان القصيرتان بورود «تُرْتَجَى» فيهما دون سائر القرآن ؟ ليس ذلك فقط ، بل الملاحظ أن هاتين الجملتين لم تعلّقا شفاعة هذه الأصنام على إذن الله فخالفتا بذلك ما هو مطّرد فيه من ربط شفاعة أى شخص بإذن رب العزّة(١١٨) . من هنا فإن أقرب التفاسير إلى المنطق هو ما قاله سيد أمير على من أن أحد المشركين ، حين سمع النبى عليه السلام يذكر أصنامهم فى هذا السياق القرآنى المدمدم بالغضب ، خاف أن يأتى صلى الله عليه وسلم بشىء من

---

(١١٨) انظر كتابىّ : « ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته ؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية » (المطبعة النموذجية/ القاهرة/ ١٤١٢هـ - ١٩٩١م/ ٢٢٦ - ٢٤٧) و « دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية - أضاليل وأباطيل » (مكتبة البلد الأمين / ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م / ٣٦ - ٤١) حيث يجد القارئ دراسة مفصلة لهذه القضية من كل جوانبها .

ذَمّها فسبق إلى مدحها بهاتين الكلمتين(١١٩) . ولقد كان العرب فى الجاهلية يرددون تِينك الجملتين تعظيما منهم لهذه الآلهة الثلاث كما جاء فى كتاب « الأصنام » لابن الكلبى(١٢٠).

ومن كلام بيرك الغريب قولُه إن البخارى يروى عن عمران بن حصين، فى تفسير قوله تعالى : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » ، أن الصلاة تسقط عن الشخص إذا بلغ مقام المعرفة(١٢١) . ويزيد الأمر غرابةً أنه لم يقل لنا أين قرأ هذا الكلام . ولقد بحثت فى البخارى عند تفسيره لهذه الآية فوجدته يقول ، روايةً عن سالم ، إن معنى اليقين هو « الموت »(١٢٢) . ثم إن الكلام الذى ذكره بيرك أشبه أن يكون من اختراعات الشياطين الذين يدّعون التصوف ويريدون أن يتفلّتوا من أداء العبادات والتزام شرع الله .

وفى تعليق المستشرق الفرنسى على قوله جل جلاله : « فذكّر

---

(١١٩) انظر سيد أمير على / روح الإسلام / ترجمة أمين محمود الشريف / سلسلة « الألف كتاب » / ١ / ١١٣ .

(١٢٠) انظر ابن الكلبى / الأصنام / تحقيق أحمد زكى / الدار القومية للطباعة والنشر / ١٩٦٥م / ١٩ .

(١٢١) انظر هامش الآية ٩٩ من سورة « الحجر » / ص ٢٧٨ .

(١٢٢) صحيح البخارى بحاشية السندى / مكتبة زهران / ٣ / ١٤٧ .

إنما أنت مذكّر * لستَ عليهم بمُسَيْطِر » نراه يقول إن « هاتين الآيتين يمكن أن تكون لهما نتائج خطيرة إذا كان لنا أن نفهمهما على أنه ليس للنبى إلا إبلاغ الرسالة والتذكير بها بعيداً عن أى إكراه سواء كان هذا الإكراه خاصًا بالدخول فى الإسلام أو كان عاما يشمل كل شىء . وفى تلك الحالة لن يكون له أى سلطان ، وهذا هو أحد المعانى التى فسّر الطبرى بها هاتين الآيتين »(١٢٣).

وبالرجوع إلى الطبرى فى الموضع الذى حدّده بيرك ألفيته يقول ما نصّه : « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : فذكّر يا محمد عبادى بآياتى وعِظْهم بحججى وبلّغهم رسالتى . « إنما أنت مذكّر » : يقول : إنما أرسلتك إليهم مذكّرا لتذكّرهم نعمتى عندهم وتعرّفهم اللازم لهم وتعظهم . وقوله : « لست عليهم بمسيطر » : يقول : لست عليهم بمسلّط ولا أنت بجبار تحملهم على ما تريد . يقول : كِلْهم إلىّ ودَعْهم وحكمى فيهم . يقال : قد تسيطر فلان على قومه ، إذا تسلّط عليهم . وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل»(١٢٤) ، ثم يمضى فيذكر كلام من قال مثل قوله .

ومن الواضح أن بيرك يريد أن يقول إن الرسول ليس له أى

---

(١٢٣) هامش الآيتين ٢١ ـ ٢٢ من سورة « الغاشية » / ص ٦٧٧ .

(١٢٤) تفسير الطبرى / دار الريان للتراث / ٣٠ / ١٠٥ ـ ١٠٦ .

سلطان من أى نوع ، فهو مجرد حامل رسالة يبلّغها للناس وكفى . أى أنه لا يحكم ولا يقضى بين العباد ، وهذا هو معنى قوله إن هاتين الآيتين يمكن أن يكون لهما نتائج خطيرة ! ولست أدرى ماذا يقول بيرك وأمثاله فى قوله تعالى : « فلا وربّك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شَجَرَ بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيتَ ويسلّموا تسليما »(١٢٥) ، وقوله سبحانه : « وأنِ احكُمْ بينهم بما أنزل الله ولا تتّبِعْ أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك»(١٢٦) ، وغير ذلك من الآيات المشابهة . إن السياق فى سورة « الغاشية » (المكية) هو سياق الدعوة إلى الإسلام ، وهو أمر لا مجال فيه للإكراه ، إذ ليس لأحد سلطان على مملكة الضمير . ولم تكن هناك حكومة إسلامية فى مكة ، ومن ثم لم يكن للرسول مجال للقضاء أو للحكم أو لقيادة الحروب ، ولكنه عندما هاجر إلى المدينة وقامت دولة الإسلام أصبح عليه السلام قاضيا وحاكما وقائداً حربيا . ولقد أشار بعض من استشهد بهم الطبرى على صواب تفسيره إلى أن الأمر قد تغيّر فى المدينة ، إذ قال : « حدثنى يونس قال : أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد فى قوله : « إنما أنت مذكّر * لستَ عليهم

---

(١٢٥) النساء / ٦٥ .

(١٢٦) المائدة / ٤٩ .

بمسيطر » قال : لست عليهم بمسلّط أن تكرههم على الإيمان . قال : ثم جاء بعد هذا : قاتل المنافقين والكفار واغلظ عليهم ، وقال: اقعدوا لهم كل مَرْصَد ، وارصدوهم ولا يخرجوا من البلاد ، « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة فخلّوا سبيلهم . إن الله غفور رحيم » . قال : فنسخَتْ « لستَ عليهم بمسيطر » . قال : جاء « اقتلْه أو يُسْلِم » ... » (١٢٧) . أيريد بيرك أن يوهمنا بأن الإسلام لا علاقة له بالتشريع ولا بالحكم ؟ هيهات ثم هيهات !

ولبيرك في هوامشه حذلقات مضحكة : من ذلك تعليقه على عبارة « من ورائه » (فى الآية التى تتحدث عن الكافر حين يُسْقَى يوم القيامة «من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويأتيه الموت من كل مكان ، وما هو بميت ، ومن ورائه عذابٌ غليظ») بقوله إن المستقبل هنا يصوَّر كما لو كان الناس يتقهقرون إلى الخلف ، وهو ما يتفق بمصادفة غريبة مع عبارة پول ڤاليرى ، على حين أن الحاضر والمستقبل الوشيك إنما يُعبَّر عنهما فى اللغة العربية بقولهم : « بين يديه » . إلا أن هذين التعبيرين يبدوان للمفسرين غير منطقيين » . ثم يحيل بيرك على الطبرى فى تفسيره لهذه الآية(١٢٨) . ولى على ذلك

---

(١٢٧) تفسير الطبرى / ٣٠ / ١٠٦ .

(١٢٨) هامش الآية ١٧ من سورة « إبراهيم » / ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .

ثلاث ملاحظات : أولاهـا أن بيرك لم يقل : « من ورائه » بل قال : « وراءهم » . وأغلب الحسبان أنه سهو ، لكن لا بد من التنبيه إليه على أية حال . والثانية : أن المفسرين لم يقولوا إن هذين التعبيرين غير منطقيين ، بل الذى فى الطبرى فى هذا الموضوع (وهو كل ما أحال إليه المستعرب الفرنسى) أن العرب قد تعبّر بـ « الوراء » عن «الأمام» . هذا كل ما هنالك ، وقد أعطى الطبرى بعض الشواهد عليه ، فليس فى كلامه إذن أى إشارة إلى لامنطقية التعبير . ومعروف أن اللغات كثيرا ما تقول شيئا وتقصد عكسه ، وهذا من بلاغة القول. ومع ذلك فإننى أرى أن « الوراء » هنا مستعمل بمعناه الأصلى، والمقصود أن المشرك حينئذ لا يعلم أن جهنم تنتظره بل يظن أن تجرُّع الصديد هو كل ما ادُّخِر له من عذاب ، لكنه لو نظر خلفه لرأى جهنم وعذابها الذى لن يفلت منه . فـ « الوراء » فى هذا السياق إشارة إلى ما لا يراه الإنسان ، إذ كل ما هو أمامه يكون فى نطاق رؤيته، أما ما كان خلفه فهو مجهول له لأن بصره لا يقع عليه . وتبقى الملاحظة الثالثة ، وهى خاصة بقول بيرك إن عبارة «بين يديه» تدل عند العرب على الحاضر أو المستقبل الوشيك . وهذا غير صحيح، إذ هى على العكس من ذلك تدل على ما مضى . وهذا يعنى أن اللغة العربية إنما تتصوّر حركة الناس على وضعها الطبيعى ، أى إلى الأمام لا إلى الخلف على خلاف ما يقوله بيرك . وتفصيل

ذلك أننا لو تخيلنا طائفة من البشر تسير في صفٍّ لكان كل مَنْ بين يديْ زميله هو السابق عليه . وهكذا فإن تصديق القرآن لما بين يديه معناه تصديقه للكتب السماوية التى سبقته فى النزول ، وإذن فقد أخطأ بيرك هنا أيضاً .

ومما لا بد من مناقشته كذلك من حذلقات بيرك فى هوامشه قوله عن قصة موسى مع العبد الصالح فى سورة « الكهف » إن الفقهاء يرون فيها درساً أخلاقيا يصوِّر ما ينبغى أن يتحلى به المريد من أدب مع شيخه ، وإن قال أيضًا إنه يحس فيها بنكهة من العبث الكركجوردى[١٢٩] . ولا بد ، بادئ ذى بدء ، من الإشارة إلى أن القصة التى نحن بصددها هى قصة العبد الصالح الذى أراد موسى مصاحبته فحذَّره بأنه لن يستطيع معه صبرا لأنه سيرى منه أشياء غريبة لا يهضمها منطقه لعدم إلمامه بكل جوانب الموضوع ، لكن موسى أصرَّ على مصاحبته وبدأت الرحلة . وفى البداية ركبا سفينة لبعض البحارة المساكين فرآه موسى يخرقها فأنكر عليه ذلك، ثم شاهده يقتل غلاماً دون جرم ارتكبه فأنكر عليه أيضًا هذا التصرف ، ثم وجده فى المرة الثالثة يقيم جدارا متداعياً فى قرية أَبَى أهلها أن يضيِّفوهما فقال له: لقد كنت تستطيع أن تطلب على عملك هذا أجرا . وعندئذ أنبأه

---

(١٢٩) هامش الآيات ٧١ ـ ٧٩ من سورة « الكهف » / ص ٣١٥ .

العبد أنه قد آن أوان افتراقهما ما دام لم يستطع معه صبرا كما توقع ، ثم شرح له هذه التصرفات بما أزال غرابتها قائلا له إنه قد خرق السفينة ليحدث فيها عيبًا يصرف عنها طمع الملك الذى كان ديدنه اغتصاب السفن السليمة ، وقَتَل الغلام لأنه لو تُرِكَ حتى يكبر لنال أبويه من طغيانه وكفره ما لا يقدران على تحمله من وبال ، وأقام الجدار المتهالك رغم عدم تضييف القرية لهما لأنه كان يخص غلامين صغيرين يتيمين فيها ، وكان تحته كنز تركه لهما أبوهما الصالح ، فلو انهدم الجدار لظهر الكنز وصاحباه ضعيفان لا يستطيعان أن يمنعا أهل القرية من الاستيلاء عليه ، فكان لا بد من بنائه إلى أن يكبرا ويستطيعا حماية كنزهما .

والواقع أنه ليس فى التصرف الأول والثالث ما يزعج العقل والضمير . إنما المشكلة فى قتل الغلام ، إذ كيف يمكن قتل إنسان بناءً على مثل هذا التعليل الذى لا يستطيع أحد أن يُثْبِت صدقه ؟ ولقد كنت أقرأ هذه الآيات منذ عدة سنوات فى مدينة الطائف بالسعودية ووقفت أمامها مشدوها كأنى أقرؤها لأول مرة وتساءلت هذا التساؤل المحير ، ثم انبثق فى ذهنى أن هذا العبد الصالح لا يمكن أن يكون إلا ملَكًا كلَّفه الله بأن ينفِّذ هذه الأمور الثلاثة ثم يشرح الدافع إليها بعد ذلك لموسى كى يريه صدق الحكمة التى تقول : لو اطَّلعتم

على الغيب لاخترتم الواقع . أى أن قتل الغلام لم يتم على يد واحد من البشر ، وإلا لوجبت محاكمته . إنما هو مِثْل موته مرضًا أو فى زلزال أو بسبب السقوط فى بئر مثلاً مما تنتفى معه الجريمة ولا يعود هناك محلٌ لمحاكمة الفاعل . ثم راجعت فى اليوم التالى عددا من التفاسير فى هذه المسألة فوجدت المودودى يقول نفس الشىء مع توسُّع وتفصيل واستقصاءٍ ، فسُرَّ خاطرى لهذا التوافق العجيب بيننا . وأحسب أن هذا هو أوجه ما يمكن أن تفسَّر به هذه الآيات ، وإذن فليس فى الأمر أى عبث كما خطر لبيرك . أما قول هذا المستعرب إن الفقهاء يرون فى الآية درسًا فى الأدب الذى ينبغى أن يتجلى به المريد مع شيخه ، فالصواب أن الصوفية هم الذين يقولون هذا لا الفقهاء ، إذ معروف أن الفقهاء يلتزمون بظاهر الأمر ومنطوق الشريعة ، أما الصوفية فيؤولون ويتحدثون عن علم الباطن كما هو معروف .

وعن قوله تعالى فى سورة « الشعراء » على لسان فرعون مخاطبا موسى : « قال : ألم نربِّك فينا وليدا ولَبِثْتَ فينا من عمرك سنين * ... » يتحذلق بيرك قائلا : « إن فى هذه الآيات تمصيرا لموسى . ويؤكد هذا التمصير قول فرعون (فى الآية ٢٧ من نفس السورة) لمن حوله مشيرا إلى موسى : « قال : إن رسولكم الذى أُرْسِل إليكم لَمجنون » رغم أن موسى ، فيما يبدو ، قد قصر مهمته على إطلاق

بنى إسرائيل من نِير العبودية »[١٣٠] . ثم يمضى المستعرب الفرنسى فى هامش آخر خطوة ثانية فيقول : « إن عملية تمصير موسى قد بلغت نهايتها فى سورة « القصص » حتى إن اسم « بنى إسرائيل » ليس له ذكر فيها ، بل قيل عنهم ببساطة إنهم « طائفة » من المصريين (الآية ٤) . كذلك لم يُشِرْ إلى الجانب الأساسى فى مهمة موسى ، وهو تخليص بنى إسرائيل ، اللهم إلا هلاك الجيش المصرى فى البحر مع إغفال سبب هذا الهلاك (الآية ٤٠) »[١٣١] . وفى تقديمه لسورة « غافر » يقول إن أهمية ذكر موسى فى تلك السورة ترجع إلى تمصير دوره ، هذا التمصير الذى يبرزه انتساب الرجل الذى يكتم إيمانه ويدعو بدعوة موسى إلى آل فرعون [١٣٢] . وبالمثل يطرق بيرك هذا الموضوع فى هامش الآية ١٥ من سورة « النازعات » قائلا إن موسى هنا لا يقدَّم بوصفه نبيا مرسلاً إلى مصر لإخراج بنى إسرائيل منها كما فى سفر « الخروج » وعدد من النصوص القرآنية بل لدعوة فرعون إلى الإيمان [١٣٣] .

أما أن قوله عز شأنه فى سورة الشعراء » على لسان فرعون :

---

(١٣٠) هامش الآية ٢٨ وما بعدها / ص ٣٩٠ .

(١٣١) هامش عنوان سورة « القصص » / ص ٤١٢ .

(١٣٢) هامش عنوان سورة غافر / ص ٥٠٣ .

(١٣٣) ص ٦٥٩ .

« ألم نربّك فينا وليدا ؟ » يدل على أن القرآن يمصّر موسى ، فلست في الحقيقة أدرى كيف يكون ذلك . صحيح أن موسى قد وُلد ونشأ في مصر وتربى في قصر فرعون ، لكن هذا لا يعنى أنه لم يعد إسرائيليا . ثم إن هذا مذكور في العهد القديم أيضاً ولم ينفرد القرآن به ، وهو جزء من التاريخ ، ومن ثم فلا سبيل إلى تغييره .

وعلى هذا النحو ينبغي أن نفهم قوله تعالى في سورة «القصص» : « إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شِيعا يستضعف طائفة منهم (وهى طائفة بنى إسرائيل) » ، فالمقصود بـ « أهل الأرض » سكان مصر ، وليس شرطا أن يكونوا كلهم مصريّى الجنسية ، ومن ثم فقوله : «طائفة منهم» لا تعنى بالضرورة طائفة من المصريين بل طائفة من سكان ذلك البلد ، وهم بنو إسرائيل .

كذلك فإن قول فرعون لمن حوله متهكما بموسى : « إن رسولكم الذى أُرسِل إليكم لمجنون » لا يعنى أن موسى كان مرسلا إلى المصريين لا إلى بنى إسرائيل ، بل يعنى أنه كان مرسلاً إلى فرعون وملئه ليخاطبهم في إطلاق بنى إسرائيل (١٣٤) ، وإلا فمع من كان

---

(١٣٤) وهو نفسه ما يقوله بنفس الألفاظ تقريبا سفر « الخروج » : « فالآن هلمّ فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبى بنى إسرائيل من مصر » (٣/١٠) وكذلك التلمود : « أرسل الرب موسى ثانية إلى فرعون ليخرج بنى إسرائيل من أرضه » (Selections from the Talmud , P. 135) .

ينبغى أن يتفاوض فى هذا الشأن ؟ وقد كان لا بد من مخاطبة فرعون فى أمر تألُّهه لأن هذا التأله كان هو باب الاستبدادِ والعسف ببنى إسرائيل وسائر الرعية . أما إذا كان قد آمن بموسى بعضُ المصريين كالرجل الذى كان يكتم إيمانه من آل فرعون حسبما أشار بيرك (وفريق السحرة إذا كان لى أن أضيف شيئًا) فذلك أمر شخصى راجع إليهم . ولا يُعْقَل أن يطلب منهم موسى أن يرجعوا إلى الكفر بحجة أن رسالته إنما هى لبنى إسرائيل دون غيرهم !

وبعد ، فإنى أظن أنه قد اتضحت الآن قيمة الترجمة البيركية للقرآن الكريم وأنها ليست فتحا فى ميدانها كما زعم لها من دافعوا عنها وعن صاحبها ، إذ فيها أخطاء وأوهام كثيرة وجهل وعبث شديد، وفيها إساءات للقرآن والإسلام لا يمكن التهوين من شأنها بأىِّ حال . ولسنا ندَّعى أنها تخلو من الحسنات ، فهذه دعوى نربأ بأنفسنا عنها . كل ما قلناه ونقوله هو أنها ليست أفضل من غيرها ولا حتى فى أسلوبها ، إذ هو أسلوب ثقيل متكلَّف فى كثير من المواضع، وهناك من الترجمات ما يتفوق عليها كثيرا .